السَّرَبُ

الكتاب : السرب

المؤلف : محمود إمام

تصميم الغلاف : أسامه علام

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع ٢٠١٤/٩٣٧٠

الترقيم الدولي : ٧-٦٥-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى : ٢٠١٤



٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

Noon_publishing@yahoo.com

السَّرَبُ

رواية لـ

محمود إمام





إهداء الى الجد : (امام عبد الجواد).

إهداء الى الجد : (رمضان عبد الجواد).

إهدائي الخاص جدًا إلى الجدتين:

(طاهرة عبد الصمد) و (عطيات عبد الصمد)

عمي العزيز: خالد إمام عبد الجواد.

عمي العزيز: يحيى إمام عبد الجواد.

عمي العزيز: عبد الجواد إمام عبد الجواد.

خالي العزيز: محمود رمضان عبد الجواد.

لكم مني أنقى تحية عطرة.. لتواجد رحقيكم بتلك الرواية.. التي تحمل لي طابعًا خاصًا غيّر من حياتي الكثير.. إلى كل هؤلاء؛ شكرًا.

إلى:

ذلك الجيل الذهبي.. جيل الثمانينات.. الذي كانت به أروع أيام حياتي.. إلى طفولتي، حيث ركضي بالكرة.. مع (ماندو) و(بيكا).. وعندما يهتف عمي يحيى لابنه بالصعود يهرع كالمجنون لتلبية النداء.. وسخريتنا اللاذعة عندما يُعاود الكرّة.. (كنا صغارًا بالفعل).. إلى مدرسة الجواد علي حسني.. وتمثيلي بها دورًا في مسرحية طفولية، رغم أنني لم أنتمِ يومًا لصفوف تلك المدرسة، تفجرت الكثير من المواهب حينها.. ذكريات الرسم.. أفلام الكارتون؛ مازنجر، جريندايزر، ميكي، وتوم وجيري.. إلى أن يأتي الليل مع تاكسي السهرة..

أفلام الرعب.. وتجميع الميكانو.. بنك الحظ.. المقالب التي يلقون عليها هزار بوابين.. (كهرباء).. (بيووضة).. صلاة الجمعة وتجمعاتنا الصبيانة.. التي لا يشوبها مصلحة من أي نوع سوى أننا معًا.. خصام وتصالح.. لقاء وفراق.. حب مدرسة.. مذبحة الثانوية العامة.. كل تلك الأشياء نقطة في بحر طفولة الثمانينات العزيزة.. التي كنت ومازلت أعشقها..

تحية عطرة

إلى جيل الموكوسين.

شكر خاص جدًا لصديقي العزيز صاحب رائعة (أبابيل): الكاتب شريف عبد الهادي.



الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَاتَّخذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

صدق الله العظيم

المكان: قصر ..(محمد علي باشا)

يونيو ١٨٤٨

أراقب موكب وصول العزيز..

كلما ذهب هنا أو هنالك..

يستعدون لاستقالبه من خلال موكب مهيب..

عندما يأتي، قشعريرة لا أدري سببها حقًا..

تنتابني قشعريرة قاتلة..

خصوصًا بعدما رأيت عربة تُطل من نوافذها فتيات بارعات الجمال.

يدارين أسفل عيونهن بخمارات بيضاء..

ذهبت مسرعًا آمر الخدم أن ينصبوا الموائد..

راقبتهم وهم يضعون بعناية مأدبة الخراف التي تفوح منها روائح الشواء الطازج..

جلس بالمقدمة الباشا..

راقبه الأمراء والوزراء..

عندما امتدت يده فقطف قطعة من اللحم.. معلنًا بكل صراحة بداية المأدبة.

أراقب ردود أفعاله بحذر شديد.. ينظر لي.. أحضر له خادمًا كي يُحضر قنينة الماء.. ليغتسل هو وضيوفه الكرام.

نظرات متحفزة ألقاها محمد علي على ذلك الأمير..

الأمير (زهران) كبير سفراء الباشا ..

أقف جوار العزيز تمامًا..لطالما اسميته ب(العزيز) .. ولما لا وهو من انقذ وطنى من الهلاك .. لماذا لا يصبح عزيزا اذن ؟.. رغم علمى انه الباشا ..

مراقبًا بشغف نظراته المتسائلة التي تُطل من عينيه للأمير..

قبل أن يقطع الصمت الأمير قائلاً بابتسامة ودية:

- ما بك أيها الباشا.. هل هناك أمر يشغل بالك تلك الأيام؟ أخشى أن تكون حربك الأخيرة على الوهابية قد...

قطع محمد علي الحديث قائلاً:

- أمر الدولة لا يشغل بالي أمام المائدة يا زهران.

- لماذا أراك شاردًا إذن؟!

- أريدك أن تهتم بالزواج.

علامات الاندهاش تصعق الأمير زهران وهو يقول متسائلاً:

- الزواج؟ كيف علمت؟

ابتسم الباشا قبل أن يقول في هدوء:

- ألمحك تنظر إلى فتيات القصر بنظرات سريعة، ثم تداري لهفتك بفتح أحاديث مع الوزراء.

- حاشا لله أن أنظر إلى فتيات القصر يا مولاي.

ضحك والي مصر وهو يقول:

- زهران لا يعلم أن الملك لا يدرس أساليب المعارك والحروب فقط.

واقترب منه قليلاً:

- بل أدرس نظرات البشر يا ملك السفراء.. لذلك انتقِ ما تريد.. أنا أمنحك فرصة للزواج كي لا يشغل بالك التفكير بالنساء.. لتحسين العلاقات الدولية.. ذلك من أجل الدولة.. ومن أجل مصالحها الخارجية.

ثم قام بتحاشي الأمير تمامًا موجهًا حديثه لوزير آخر..

تاركًا الأمير يبتسم..

وهو ينظر إلى إحدهن.

(من مذكرات كبير خدم العزيز محمد علي باشا)

من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٤٥.

******

عام ٢٠١٤

أتت الجدة تحمل وعاءً، به حساء ساخن للأطفال الصغار.. ذكرتني بتلك الايام الماضية التي تحمل رحيق الخبز.. وطبق القشدة.. وجلستها تجمعنا على الدفء.. على ذلك الباجور الذي يحمل لنا كل الطعام..

ننظر له بكل اهتمام..

وحكاياتها التي لا تنتهي..

منها أمنا الغولة..

جلست على الأريكة المتحضرة.. أبنائي الصغار يتساءلون لماذا لم تمت جدتي بعد؟ فقد تخطى عمرها قرابة المائة عام.. فلماذا لم تدخل موسوعة جينس العالمية إذن؟

أخبرهم دائمًا عن زمن ماضٍ جميل.. وممتع.. كنا نذهب لها (البلد) الريفي القديم.. الذي دائمًا ما يحمل لنا روائح العشق الطيبة..

ونسيم يغازل وجهك برفق..

الريف يحمل الهدوء..

كانت تجلس وحيدة بالدار..

قالت لي أمي ذات مرة أن الجدة لا تقرب لنا بصلة سوى أنها عمة أبيك..

حينها فقط اكتشفت أنها مخيفة..

نحت وجهها الزمن نحتًا..

أشبه بمارى منيب في تلك المسرحية الشهيرة "إنت جاية اشتغلي إيه؟"

أو تجاعيد أمينة رزق، فهي تُراعي دائمًا وجود ملامح الحزن على وجهها كلما قابلتني..

ولي معها موقف لا يُنسي..

تناسيت تمامًا، وقبل إكمال حديثي..

يجب أن تعلم من أنا أولاً..

أدعى (علاء سعيد).. نقيب شرطة..

أبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا..

من جيل الثمانينات الذي يُلقب بجيل العيال الساذجة.. الموكوسة..

جيل الكستور..

بالطبع أنا لم أقل سبب تلك البداية السخيفة..

حسنًا..

الحكاية باختصار شديد.. أنا أحمل حكايات لم تروها الجدة..

رغم وجودها معنا..

الحساء ساخن..

أجبرتْ زوجتي على طريقة ما لتحضيره..

أخبرتُها أن تطيعها ولا تناقش..

زوجتي مطيعة، بارك الله فيها..

ما علينا..

سألتها بكل ود:

- مش فاكرة الحكاية اللي حكيتيهالي زمان عن أمنا الغولة؟

تنظر لي -وكأنها لا تعرفني- بنظرة مندهشة، قائلة جملة وكأنها الأخيرة قبل ذهابها في رحلة بلا عودة:

- مش فاكرة يا بني.

- أنا بقى فاكر كل حاجة.. دنا حتى كنت هموت فيها.. مش فاكرة الحادثة؟

******

أخبرني ابني قبل الخلود إلى النوم (الست دي عبيطة يا بابا)..

وبّخته بالطبع..

وحاضرته حول احترام الكبير..

فلم يستوعب شيئًا البتة..

تنهدت أخيرًا لإداركه معنى أن ينال الكبير احترامًا وتقديرًا..

بالنسبة لي ولجيلي..

أما بالنسبة لذلك الجيل..

فلم أنل سوى نظرة مشمئزة..

قبل أن يخلد إلى النوم..

أنا أعلم ماذا يقول ابن الكلب هذا..

بالتأكيد يقول "عبيط مثلها"!

ذلك الجيل مصيبة بكل معاني الكلمة.

زوجتي بجانبي.. نظرت لها بكل حنان.. أمكست يدها.. وقد فهمتْ سر تقبيلي لها.. على يدها بالطبع.. أنا في غنى عن شيء آخر.. ما علينا.. وبعد تلك النظرة التي تحمل سرًا، قالت بشغف:

- إيه؟ شكلك عايز تقول حاجة؟

- آه.. الأول هتروحي الشغل الصبح؟

مالت شفتاها مستنكرة:

- لا مش رايحة، منا خلاص سبت الشغل.. انت معرفتش؟!

- أنا بتكلم جد، هتصحي بدري يعني؟

- أيوة.. انجز بقى، عايز تقول إيه؟

قبل البدء يجب أن أذكر لكم شيئًا هامًا بخصوص زوجتي الرقيقة.. التي تحمل وجه أكثر النساء طفولة..

التي حصلت على شهادة دكتوراه في علم البايولوجي بدرجة عالية.. خاطرت بكل حب.. أعلم يومًا بعد يوم... صفاتها الممتازة..

عروسة لقطة..

لا تضيع أبدًا..

تدرك قيمة العلم.. لا تخاف من القطط.. حتى الكلاب تعتبرها كائنات وديعة.. لا تخاف مطلقًا.. حتى إنها تجد في أفلام الفزع تسلية ممتعة.. متعايشة مع الواقع كأنما هي فتاة تبلغ العشرين من العمر.. رقيقة.. وهذا هو المهم..

إنها أولاً وأخيرًا أنثى..

بالتأكيد ترهب شكل الدماء.. تزوجنا وكانت ليلة سعيدة..

وضعنا بعض الأفكار لتطوير الحياة الزوجية غير التقليدية..

كي نصبح غير عاديين بالمرة.. كلانا نكره أن نركب قطار الروتين..

ترددت كثيرًا حينما طرحت يومًا فكرة المراهنات..

لست مقامرًا..

إنما هي مراهنات زوجية مدمرة على أهم أعمدة ذلك المنزل..

الذهاب إلى العمل..

نعتبره أقصى أنواع العقاب..

وتجده مبالغًا فيه..

لذا وقبل صدور فرمان من فمي..

قلت بهدوء ناظرًا إلى عينيها مباشرة، محاولاً استنباط ردة فعلها من قولي:

- هي حكاية طويلة.. حصلتلي في البلد زمان.. من وأنا عندي ١٣ أو ١٤ سنة تقريبًا.

قالت بشغف:

- وهو انت فيه حكايات ماكنتش حكتهالي؟ قول يا عم واخلص، عندي شغل الصبح.

بنظرات شاردة:

- الحكاية مرعبة أصلها.. أحكيهالك بالنهار أحسن.

لكزتني قائلة:

- متبطل رخامة بقى وقولي.. انت عارف إني مابخفش.

-ها ها ها.. لا يا خفيفة، الحكاية دي بالذات وفي التوقيت ده هتخافي.

قالت بسخرية:

- طب تيجي نراهن؟

- على إيه؟

قالت بحنان يبهرني أحيانًا:

- قولي يا حبيبي، انت مش رايح الشغل الصبح؟

- آه رايح، بس هروح بعدك، انتي عارفة إن مواعيدك مش زي مواعيدي.

بنبرة أعلمها جيدة.. نبرة الذكاء الحاد:

- طيب الرهان هيبقى الشغل.. لو خفت مش هروح الشغل.. أما لو ماخوفتش مش هتروح.. ها.. ديل؟

- دييل.

قبل الحكي، قادني إدماني الإلكتروني للعبث بهاتفي الSmart Phone..

للولوج لعالمي الافتراضي..

حيث حسابي المزيف على موقع فيس بوك الذي أنفذ من خلاله لعوالم أصدقائي ومعارفي..

وبعض العلاقات الجانبية التي لا بأس بها..

دون أن يخترق خصوصياتي أحد..

أو يمسك عليّ ذلة في شخصيتي الحقيقية..

وفي غمار الوقت المستهلك في التحميل..

وجدتني أكتب في خانة البحث على محرك البحث الشهير جوجل "أخبار المرأة المسعورة"..

كي أرى آخر الأخبار حول حادث قديم مررت به، وهل لازال يتكرر أم كان ما حدث معي قصة لا تتكرر سوى مع عاثري الحظ أمثالي، فجاءت النتيجة سريعًا..

كلاكيت تالت مرة

المرأة المسعورة تعود لتثير الرعب بأحد النجوع شرق الأقصر.. ومدير الأمن ينفي وجودها

انتاب نجع الخطباء بشرق محافظة الأقصر حالة من الرعب حول ما تناقله الأهالي عن عودة ظهور المرأة المسعورة من جديد..

الرواية الشعبية التي يتناقلها الجميع هناك أفادت أن امرأة مشوهة الملامح قامت بطرق أحد أبواب المنازل، وقامت فتاة صغيرة بفتح الباب ردًّا على الطرقات المتتالية، إلا أنها فوجئت بامرأة قبيحة الشكل، لتتعالى صرخات الطفلة بشكل مدّوٍ، قبل أن ينطلق على أثرها بعض العابرين راكضًا وراء المرأة المسعورة التي استطاعت الفرار عن طريق أحد المنازل المهجورة.

وقام الأهالي بإطلاق النار العشوائي على ذلك المنزل المهجور، وحال تفتيشه تبين عدم وجود أي أشخاص داخله.

ومن جانبه أكد السيد اللواء عبد الحميد بكر مدير أمن الأقصر، أن رواية "المرأة المسعورة" وظهورها بين الزراعات تم تناقلها بين عدد من

القرى والمراكز بالأقصر، إلا أن التحريات أثبتت أن تلك الرواية مجردة تمامًا من الصحة.

وأضاف بكر أن الهدف من إطلاق تلك الروايات بين الأهالي -والتي يجهل مصدرها الحقيقي حتى الآن- هو إثارة القلق وتكدير الأمن والنيل من جهاز وزارة الداخلية..

وكانت الشائعات والروايات قد تعددت في منطقتي القرنة والبعيرات عن "المرأة المسعورة" التي تقول الروايات إنها باتت تقطن وسط زراعات القصب، وتتربص بالمارة والأطفال لتأكلهم كما أكلت أطفالها، بعد أن أصابها مرض السعار بحسب الروايات التي يتناقلها العامة.

بدأت زوجتي تتململ، وعندما أوشكت على أن تسأل سؤالها الشهير (إنت بتعمل إيه؟) بادرتها بالقول:

- بصى يا ستي.. الحكاية بدأت من وأنا لسه عيل صغير..

بمرح طفولي أعطتني وجهها ونامت على جانبها الأيمن، وقد اتكأت بخدها على مرفقها المتعامد على الوسادة في نصف نومة، وقد انساب شعرها الحريري لتبدو كحورية من حواري الجنة، دون أن تدري أنها مقبلة على جولة صغيرة بجهنم في وضع استثنائي، تتواجد فيه الملائكة بالجحيم الذي انفتحت أبوابه مع أول حرف خرج من فمي عن أهوال كنت أظنها أسطورة، قبل أن أكتشف متأخرًا أنها واقع فاق في غرابته وفزعه الخيال.

******

عام ١٩٩٠

قطع سكون الليل الهادئ في ريف قريتنا صوت سيارة أبي، التي مضت حاملة طفلين صغيرين..

كنت أنا وأختي أسماء..

نلعب الميكانو كي لا نشعر بأزمة معاناة الطريق.

(شبطنا فيه) كعادتنا عندما نعلم بنيته للسفر.. إلى الريف.. حيث تلك الدار القديمة.

منزل الجدة، حيث يتركنا أبي ويذهب.. كي يتفرغ تمامًا لعمله مع أحد السماسرة الكبار، وضعنا بعناية داخل ردهة ذلك الكوخ.. الذي قال لي أبي بعدها أنه يُلقب الدار.. ها نحن نترنح مع التيار.. من منزل متحضر بشوارع القاهرة.. إلى تلك الكآبة المستترة داخل تلابيب دوار واحد تحتضنه أغصان النباتات بشكل دائري..

فتحت "ستي" باب الدار وعلى شفتيها ابتسامة صفراء.. مسنة كحديثها.. قال لها أبي:

- وحشاني يا أمي.

احتضنته بفيض من الحنان الأمومي الدافئ..

الذي كان -وفي تلك الفترة- لا يمسني..

كل ما كان يعنيني قراءة تلافيف قصة ما..

من روايات رجل المستحيل..

ملف المستقبل..

ما وراء الطبيعة...

ميكي وبطوط..

سوبر مان، بات مان..

هكذا أخرج عبر الكوخ الصغير إلى عوالم أخرى أكثر تحضرًا..

على أنغام الهدهد..

أضع قدمًا على قدم في مزاج واضح..

أمام أختي التي تلهو مع أخرى أمامي..

في حضرة ذلك المتسع من النبات الأخضر..

أقرأ إحدى قصص السوبر مان يتحدى مصاصي الدماء..

رواية عالمية لا يُحضرها سوى أبي بعد إحدى الأسفار بالخارج..

ها نحن نذهب إلى الدار..

حيث الجدة..

تلك السخيفة المتكئة على عصاها..

تتقدم خلف عصاها كالبلهاء..

تُحضّر خضروات..

تُطعم بها الكلاب الصغار..

نحن!

ها قد أحضرت الحساء.. وحشرنا الطعام بداخل أمعائنا..

لا يوجد أتاري.. ألعاب الجيم..

أو حتى كارتون..

لا يوجد شيء.. مطلقًا.. سوى تلك الشمطاء..

ترهبني كثيرًا..

إلى أن قالت فجأة:

- لو ماسمتعش الكلام.. هاجبلك أمنا الغولة!

اقشعر بدني أنا وأختي الصغيرة.. حينما سألناها على استحياء من هي تلك الغولة:

- بتيجي للعيال اللي مابيسمعوش الكلام.

إجابة صادمة.. دائمًا ما لا نسمع الكلام.. ولم تأتِ تلك الغولة ولو مرة للزيارة.. ولا حتى لشرب كوب شاي..

ها قد التففنا حول الجدة لنسألها عن كنية تلك الغولة.. أين تسكن.. لماذا تقتل الاطفال.. والكبار.. وأين كانت البداية؟

قالت بود أمومي خبيث:

- أمنا الغولة دي وشها بشع.. عيونها حمرا.. شعرها كثيف.. لها أنياب.

قالت أختي المتسرعة:

- زي دراكولا؟

قالت متسائلة:

- مين؟

وضعت يدي على فمها.. صرخت الفتاة، فقد كانت يدي ثقيلة.. قلت لها في لهفة:

- سيبك منها.. قوليلي إيه حكايتها يا تيتة؟

تنظر بشرود كأنما تتذكر أختها المتوفاة.. بأسلوب يفوق أفلام الرعب نفسها.. قالت بهدوء مخيف مدبب.. كأنما تركب سيارة والسائق ينتقي المطبات كي يكون حديثها مرعوشًا إلى أقصى درجة:

- دي لعنة كبيرة.. بتصيب ناس وناس.. لو صابت الحد ده.. بيعيش طول عمره في خوف ورعب.. لحد ما يموت.

- يعني إيه يا تيتة؟

- الغولة بتيجي بس للعيال اللي مش طوع أبوه وأمه.

قالت أسماء وهي ترتعد:

- يعني ممكن تجيلنا؟

قلت ساخرًا:

- وانتي مابتسمعيش كلام أبوكي وأمك؟

لكزتني كعادتها وانفصلت تمامًا عن حالة الخوف.. كثيرا ما كنت أظن أن جميع الفتيات ممثلات متقنات لأدوارهن بدقة.. أكملت الجدة التي لم تبالِ بتلك العركة الصغيرة:

- الغولة كانت هنا من زمان.. كانت مدفونة بسرها.. لحد ما جه الوقت وظهرت لناس كتيرة في البلد.

قالت اسماء فَزِعة:

- يا مامي.. بجد كلامك ده يا تيتة؟

قلت:

- وانتي تعرفي حد شخصيًا طلعتلوا الغولة؟

قالت وهي تبرق بأم عينيها في الفراغ.. تبًا لحكاياتك أيتها الجدة:
- سعدية بنت صغيرة في الكفر طلعتلها بليل متأخر.. طلعتلها بشكلها اللي يخوف.

قلت بشغف:

- حصلها حاجة سعدية دي؟

- جاتلها حالة من الجنون.. من ساعتها بقت تسمع كلام أبوها وأمها.. وماتعصلهمش أمر.

قلت بشغف أكثر:

- هي شكلها إيه الغولة دي يا تيتة.

اقشعر بدني..

لنظرتها الغريبة!

******

(من مذكرات خادم عزيز مصر)

الزمان: عام ١٨٢١

أحضرت بنفسي حساء العزيز..

ووضعته أمامه بعناية ودقة شديدة..

كان يخطو على السلم هابطًا الدرجات في هيبة..

حتى أتت زوجته الوردية، يضع يداه أسفل يدها وكأنه يحملها في ذوق رفيع..

إلى أن هبطا إلى الأسفل.. وأمام المائدة الكبيرة..

كنت أقف خلفه مباشرة..

متفحصًا وجوه الخدم الذين انتصبوا متراصين بجانب الأبواب.. وإلى تلك الخادمتين..

غريب، تلك أول مرة ألمحهم..

إنهن الآتيات من بلاد اليونان..

أتى بهن العزيز لتجديد الدماء..

كم هو ذكي بالفعل.. بعد أن فرغ من طعامه.. وذهب إلى غرفة الاجتماعات، حيث كان مجتمعًا مع الوزراء..

كان العزيز يهم ببناء دولة عصرية على

النسق الأوروبي في مصر، واستعان بخبراء أوروبيين، ومنهم بصفة خاصة السان (سيمونيون الفرنسيون) .. الذي كان يجلس بجواره في ذلك الاجتماع..

كنت أذهب حيثما كان العزيز.. ولذلك فقد استمعت لأحاديثهم.. وكان ينظر العزيز لي من آن لآخر.. كأنما يقول لي شيئًا لم أفهمه.. فقد تعلمت على يده فن قراءة أعين البشر..

كانوا يدعون إلى إقامة مجتمع نموذجي على أساس الصناعة المعتمدة على العلم الحديث..

وكان أهم ما لفت انتباهي حقًا ذكاؤه الشديد في اختيار دعائم دولته العصرية، سياسته التعليمية والتثقيفية الحديثة، إلى اختيار (الخدم) والحاشية..

العزيز كان يؤمن بأنه لن يستطيع أن يُنشئ قوة عسكرية على الطراز الأوروبي المتقدم ويزودها بكل التقنيات العصرية ويحميها إلا بإيجاد تعليم عصري يحل محل التعليم التقليدي.

ينظر إلى الخبير العسكري بجدية.. كأنما هو على وشك أن يوسعه ضربًا، قائلاً:

- أريد تحقيق أهدافًا توسعية.. لا بد من تأسيس قوة عسكرية نظامية حديثة، تكون بمثابة الأداة التي تُحقق أهدافي التي أنشد.. أريد منك المزيد والمزيد من قوة القيادة كي نحقق لتلك الدولة الحماية الكاملة.

أشرد قليلاً مسترجعًا ما كان عليه الجيش قبل وفي بداية عهد العزيز محمد علي، كان مؤلفًا من فرق غير نظامية تميل بطبيعتها إلى الشغب والفوضى..

معظمها من الأكراد والألبان والشراكسة، إضافة إلى قوات جماعات من الأعراب الذين كان الولاة يلجأون إليهم كمرتزقة..

وكانت أعمالها لا تتعدى أساليب حرب العصابات..

والكرّ والفرّ.

رأى محمد علي أن هذا الجيش لا يُعتمد عليه، فبذل جهده في إنشاء جيش يضارع الجيوش الأجنبية في قتالها، وقرر أن يستبدل جنوده غير النظامية بجيش على النظام العسكري الحديث.

كانت الدولة على أتم الاستعداد لخوض المعارك..
كانت مصر على أهبة الاستعداد لخوض أعتى الحروب..

******

وصفت لنا وصفًا عن وحش له أسنان وعيون حمراء، مثلها مثل كثير من الوحوش التي نشاهدها في أفلام الكرتون ذات الطابع الروتيني للغاية..

لكنها تركت داخلي قبضة سوداء من الدار والجدة وكل شيء..

ارتعدت فرائسي خيفة..

شعرت حينها بسريان البرد نحو ساقي رغم أننا في حرّ.. شديد القيظ.. ليلاً..

كل ما حدث تلك الليلة..

أنني أصبت ببرد..

كولد كسول نام على فراش نباتات مبتلة.. فلم يبالِ..

أنا بالفراش الآن.. قالت أختي بكل اهتمام:

- أنت مصدق الكلام اللي قالته تيتة ده؟

قالتها أختي أسماء في نهم.. وهي جالسة جواري.. تضع على رأسي قطنًا مبللاً.. كمادات.. فقلت لها بهدوء:

- انتي ماشفتيش كانت بتبص ازاي أول ما افتكرتها.. شكلها شافتها قبل كده.. صحيح هي تيتة اسمها الحقيقي إيه؟

- مش عارفة، لما بابا ييجي نسأله.

- ستك وماتبقيش عارفة اسمها إيه؟

- طب قول انت يا فالح لو تعرف؟

- سعدية!!

- يعني تقصد الغولة اللي طلعت للبنت الصغيرة كانت ليها؟

- طب ماقلتش ليه؟

- تشابه أسماء.

- لا يا فالحة، أنا قلتلك إن نظرتها ماكنتش طبيعية بالمرة ساعة ماقلنالها تحكيلنا عن الغولة.

- يا ماما.. لا ده كلام فاضي طبعًا، أنا مش مصدقة.. وبطل بقى تتكلم، أنا بحاول أنسى.

- تحاولي تنسي إيه واحنا عايشين في بيت الرعب ده؟ ده شكلها لوحده يخوف!

نظرت لي بكل غضب:

- احترم الكبير.. هقول لبابا.

- آه يا خباصة.. ده بيني وبينك.

وضعت قالب القطن الذي تخلى عن قطراته ساقطًا نحو الطبق الموضوع..

طبق الجدة.. مكملة:

- أنا سمعت حكايات كتير عن حكاية أمنا الغولة.

قلت بصوت واهن:

- ماحنا كنا بنلعبها.. "أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي ايه".

قالت بمرح تاركة يدها تقع على كتفي المريض:

- بحضر السكاكين علشان أدبحكوا، هي هي هي.

- إيدك تقيلة يا بعيدة.

انقطعت الكهرباء فجأة عن الدار.. بل عن القرى أجمعها.

تعلقت بي أختي:

- يا ماما.. أنا خايفة.

******

-(هنعمل إيه في الضلمة دي دلوقتي؟)

- أنا عيان.. وبعدين أنا مابخافش!

جلسنا سويًا نتحدث.. ولا نضحك.. في انتظار قدرنا المجهول مع الظلام.. لا عجب أن أختي ترهب شخصيات كرتونية رغم أنها تُحارب العدالة، كبات مان..

عندما تقوم بتنظيف الشقة مع أمي.. أختي سطحية بعض الشيء.. ترهب الظلام.. كأنما هو إعلان حالة حرب.. وشن غارات.. مطالبًا

الناس بإطفاء الأضواء إبان الاحتلال الإنجليزي.. للسماح للأشباح بالتجوال في منزلنا!

أو ذلك الدار!!

فقط تأكدنا بأن هناك ما يتحرك قربنا بمسافة متر تقريبًا..

كأنما هو (عِرسة)..

أو فأر..

برهبة متمسكة بجمجمتي..

فقط جلست جانبي..

تمنيت حينها وجود كاميرا تصوير لألتقط لها عدة صور.. لترى كم كان وجهها مضحكًا.. قالت بفم مرتعد:

- أنادي على تيتة؟ أنا بخاف.. لا، أنا خاااايفة.

- شكلها نايمة.

- يا مامي في حاجة لمست رجلي.. حاجة خشنة.. يا تيييييييييتة.

- اهدي شوية بقى، ماتخوفنيش معاكي.

باب الغرفة كان مفتوحًا كفم كلب متوسل.. برز له لسان أسود اللون..

أتى من حلقة ضوء أصفر اللون.. منبثق من حلقة خيال لشمطاء..

أمسكت بشمعة.. تأتي بهدوء مخيف.. بالطبع هي:

- تيتة، انتي صاحية؟ النور قطع ومالقناش حاجة..

الشمطاء ذات الشعر المتناثر، لا يظهر لها ملامح، خُيل لي بأن عينيها تلمعان كعيون القطط..

أكاد أقسم بأنني شاهدت لمعة عيني القطط في وجهها..

أتت واقتربت..

رددت أسماء بخوف:

- تيتة، انتي مابترديش ليه؟

توقف الظل الممسك بالشمعة..

منتصبًا كعمود خرساني عند مقدمة السرير..

كان خيالاً مرعبًا لوحش أتى من أعماق الخيال.. هكذا خُيل لي:

- تيييتتتتة.. هو في إيه؟

أمسكت بجمجمتي أكثر..

بل كادت تدهس صدري..

عندما رأت العيون اللامعة تخرج من ظل الشمطاء..

وتتجه نحونا..

والجسد ممسك بشمعة.. لا يزال ممسكًا بتلك الشمعة الخافتة..

خرجت الصرخات مدّوية من الفتاة الصغيرة.. لم يلبثت أن امتزج صوتها بصوتها.. بصراخنا سويًا.

أتى (النور فجأة)..

وكل شيء اختفى..

والسيدة الشمطاء التي كانت تقف بتخشب عند مقدمة السرير.. اختفى كل شيء..

فقد هرعت الجدة على صراخنا قائلة:

- بتصوتوا ليه يا ولاد الكلب؟!

قلت في نفسي: عاملة زي البوليس في الافلام القديمة، ما يجيش إلا بعد وقوع الكارثة.

******

ها قد رأيت صابحة...

تلك الفتاة التي استلطفتها كثيرًا..

اللغة هنا قديمة.. لا تتعجبي..

فقد حانت لحظات اللعب..

والمرح..

لا تلعب الكرة..

إنما تلعب لعبات أخرى..

بنك الحظ..

تجمعنا نحن الثلاثة..

تلك الفتاة تحب مثلاً الكوتشينة..

إنها تجيد لعبة الجوكر..

هكذا أضحك على الجميع وأُخفي أوراقًا..

أعشق "الخمّ" جدًا..

ذهبنا بعيدًا في الحقول..

تُرشدنا صابحة إلى بيت قديم..

دار قديمة بالمعنى الفلاحي.. تسكنها العفاريت.. وأبو رجل مسلوخة.. تقشعر الأبدان حقًا.. ولا ندري سببًا معقولاً لهذا.. الجميع ربما يفقدون أرجلهم.. أو ربما تُشوّه أيضًا.. أو تُسلخ.. ولا يوجد شيء مخيف..

ولا ندري سبب ذلك الكمّ الهائل من الخوف..

ولا ندري شيئًا سوى أن أبو رجل مسلوخة..

يبدو أن براد الشاي قد وقع على قدمه وهو يسبّ أم العيال مثلاً..

قالت صابحة:

- في البلد هنا حكايات وموووايل ياما.. حكايات عن النداهة اللي بتنادي على حد وبتخطفه.. وبيبقى في نظر الكل ميت.. ولا حكايات أمنا الغولة.. دي بقى..

قاطعتهاا بحماس وفضول:

- أيوةةةة أمنا الغولة.. جت منين وإيه قصتها؟ تيتة حكتلي عنها بس مالحقتش.

جلسنا قرب ذلك المنزل ووضعنا لعبة بنك الحظ أمامنا.. ورغم صراخ أختي أسماء عدة مرات بالكفّ عن سؤال صابحة عن حكايات الرعب.. إلا أنها قالت:

- اسمع إنها بتاكل العيال الصغيرة.

قالت أسماء:

- ماقلت بطلوا كلام بقى.. والله هروح وأسيبلكم المكان.

أكملت كأنما لا يعنيني ردها:

- ليه؟ هي كانت مابتخلفش مثلاً؟ كان عندها عقدة ولا إيه؟

شردت صابحة قليلاً ولم تنتبه لوجودنا لدقائق.. هبّت صارخة.. شعرت بموجة ثلجية تجتاح موجة الصيف.. متسع العين قلت:

- مالك بتصوتي ليه؟ فيه إيه؟!

أجهشت في البكاء.. قائلة وهي تضرب الأرض:

- شفتها.. طلعت من الأرض وبرقتلي.. خوفتني!

وتركتنا وهرعت مسرعة..

نظرت إلى أختي.. كنا على وشك الصراخ سويًا.. كتمنا انفجارًا على وشك الحدوث وركضنا.. وأسرعنا تاركين لعبة بنك الحظ الثمينة..

****

الزمن: ٢٠١٤

- الساعة بقت ٣:٢٢.. مش هتنامي يا حبيبتي ولّا إيه؟

نظرت إليّ زوجتي الحبيبة بنظرات متشككة.. قائلة بحذر:

- بقولك إيه.. لو كنت بتحكيلي الحكاية دي علشان تشتغلني...

- يعني نقوم ننام؟ تصبحي على خير.

- تنام إيه؟! مفيش نوم غير لما تكمل الاشتغالة للآخر.. البنت شافتها في الغيط.. وانت وأسماء شفتوها في الدار.

ببساطة:

- لا.

- يعني إيه يا بني؟ انت مش قلت إنها ظهرتلك في الدار.. واختفت أول ما النور جه؟

- مش متأكدين إنها هي.. جايز فعلاً نكون بنتخيل.

أشارت بإصبعيها السبابة والوسطى بتوتر:

- انت وأختك شفتوا نفس الحاجة؟! يا سلام! بتستعبط حضرتك.. ولا فاكرني عيلة صغيرة!

- لا ده ولا ده.. بس جايز شعور أختي بالخوف ولّد عندي أحاسيس بالخوف برضه.. فـ...

مقطاعة:

- شعور إيه! أختك لمستها حاجة في رجليها، صح؟!

- مش متأكدة.

- ماشي.. انت شفت عين الست بتتحول لقطة، صح؟

- صح.. أو مش صح.. الظلام ممكن نتخيل فيه أي حاجة.

- يوووووووووووووووووووه.. أنا مش فاهمة حاجة بقى!

- طيب سيبيني أكمل وهتفهمي كل حاجة، يا عم القمر انت.

- شكلها ليلة مش فايتة، أنا عارفة!

******

الزمن: ١٩٩٠

أسرعنا نقص ما حدث لنا في الغيط على الجدة.. وما حدث لصابحة.. وما زاد الطين بلّة أنها قالت:

- مافيش خروج اليومين دول.. الناس اللي بياكلو العيال شكلهم بره.

قالت أسماء في خوف:

- أنا عايزة أروّح.. ماما وحشتني!

- لما ييجي أبوكي قوليله يا دلوعة اللي انتي عايزاه.

راقبت حديث الجدة..

ها نحن في أمان في ظل أمنا الغولة..

لا شك أنها هي..

بشعيراتها المنتصبة.. خالعة حجابها الأبيض.. شعيراتها تلك شبيهة بالأغصان.. التي سقط منها النبات الأخضر.. وتستعد للموت.. أو تستعد لفض جماجمنا ووضعها زينة خلف الأبواب.. عبرة لمن يعتبر..

ها قد أتى والدي..

كم أحب حديثه مع الحاج (أمين).. تنتابني فرحة عارمة عندما يجتمعان.. ويتهامسان.. أتمنى لو يبقيان ليتحدثا حتى الصباح.. إنهما صديقان منذ الطفولة.. مثلي ومثل صلاح..

(محمد صلاح)..

كم أتمنى وجوده معي في تلك القرية كي نتحدى الخوف سويًا..

ها قد بدأ الحديث.. أخذا شهيقًا واسعًا من الجوزة المحببة لقلب أبي، الذي قال:

- عملت إيه في موضوع الأرض.

- طلعوا عين أهلي في التراخيص.. رحت لعصام يخلصلي التراخيص، كان عايز قرشين..

قال الحاج أمين، وقد قام بدورة بالتقاط شهيق من جوزته:

- الواد ده مابيحرمش.. النوبة اللي فاتت طلب من سعاد برضك.. إدتله فوق دماغه.. ومشالها الورق.

- بلد ما بيمشيش فيها غير النسوان.

- هع هع هع هع..

ضحكاتهما دافئة.. داخل الدار.. أنا أستمع ولا أفهم شيئًا سوى اللهو بكوتشينتي على الأريكة.

قال امين باقتضاب:

- شفت مرات الواد عبد الصمد.. بيقولوا لاقوها مقتولة في أرض هنداوي..

- يا خبر أبيض.. ده عبد الصمد بيموت في التراب اللي بتمشي عليه.. يا عيني..

- شفت الكفرة عملوا فيها إيه؟ دبحوها وشقوا بطنها.. كانت يا عيني حامل في بنت..

- يااااااا خبر مأندل!

- من ساعتها وعبد الصمد قاعد نايم صاحي على قبرها.. يلطم ويندب حظه.

قال أبي بنبرة مواسية:

- ماعرفوش، مين اللي عمل فيها كده؟

- ولا الهوا..

فوران داخل القنينة الزجاجية التي تعج الماء المغلي.. وهو يستنشق هواءً أسود اللون:

- بيقولوا الواد علوان شاف راجل برجل معزة بيجري ناحية الغيط.. قريب من أرض هنداوي..

- علوان من صغره عيل أهبل! وحد صدقه؟

- في ناس قليلة صدقته.. ماهو برضه يا سعيدماينفعش يقدم بلاغ على راجل برجل معزة!

(هع هع هع...) أخذا يضحكان...

وتركاني سابحًا في مخيلتي..

ألا يمكن أن يكون هو نفسه أبو رجل مسلوخة كما حدثتني الجدة من قبل؟

******

- أسماء، تعالي عايزك.

كانت تلهو برسومات خيالية مثل باربي.. ورسمة لعصفور على غصن شجرة.. ومنزل مكون من أب وأم.. وأخ وأخت.. قالت باستهتار:

- ها؟ عايز إيه تاني؟

قلت مازحًا:

- تعالي نلعب بره مع صابحة.

- لا روح انت، أنا مش فاضية.

- وراكي إيه يعني؟

قمت بسحب كراسة الرسم.. ركلات وصراخ.. لعب أطفال.. قبل أن أعطيها الكراسة.. وأذهب إلى الغيط للبحث عن مكان أرض هنداوي..

أرض الأسطورة..

ها قد أوشكت على التعرف على منبع تلك الأسطورتين.. (أمنا الغولة).. (أبو رجل مسلوخة).

توارى خلف حائط ما داخل مخيلتي سؤال هام طرح نفسه فجأة: أين أهل صابحة؟

لم نعرفها سوى من قريب..

ولماذا خطرت ببالي صابحة تحديدًا؟ لا أعرف.. ها قد أتيت إلى الكوخ الخشبي المتهالك.. تُغازل أعشابه الميتة رياح هادئة.. تقدمت داهسًا بذلك (الكوتشي) على الغصون الخضراء.. إلى باب ذلك الكوخ.. أخذت بالالتفاف حوله مثل حية خرجت من بيضتها توًا.. لا يوجد شيء..

فتحت باب الكوخ المتهالك..

مصدرًا صريرًا خافتًا.. لن يلحظه أحد، وصوت الصباح المرتفع أفضل من سكون ليل أعمى لا يعرف سوى هدوء الجريمة..

كرسي خشبي من العصور الوسطى.. لا يتناسب مطلقًا مع ذلك العصر الريفي القديم..

لا يوجد شيء آخر سوى (طبلية) صغيرة..

هكذا!!!

خرجت توًا..

- إيه ده؟ صابحة؟!

جريت نحوها.. وقفت جوارها في مرح قائلاً:

- إيه يا بت رحتي فين؟ وشفتي إيه؟ خضتينا أنا وأختي على فكرة!

ملامحها جامدة رغم جمالها الطفولي الأبيض المشع.. لم تتحدث..

- انتي يا بنتي مش بكلمك؟ فيه إيه مالك؟

تقدمت نحو الكوخ كالمسحورة..

كأنما تطمئن أنني لم أسرق شيئًا بعد..

خرجت من الكوخ، وقالت بحذر:

- اللي شفته حاجة بشعة.

- شفتي إيه بالظبط؟

******

- روحي هاتيلي حاجة نشربها.

- لما تكمّل.

لانت ملامحها في غضب.. قائلة:

- احكي يا رخم..

- لما تحضريلي عصير.. ريقي ناشف يا حبيبي.

- يووووووووووووووه بقى! انت هتجنني؟! كمل بقى!

أغمضت عينيّ قائلاً:

- بكده بقى أنام ونكمل الصبح.

- يووووه بقى.. طيب رايحة.. تعرف لو نمت هدبحك!

ابتسمت في سخرية قائلاً:

- في نفس وقت اللي بتكلم فيه عن صابحة كان فيه حادثة على الطريق.. بيقولوا إنهم شافوا عفريت، اللي بيسوق العربية اتخض وخاف، مال بالعربية، اتصدم في شجرة.. قزاز العربية دخل في قفصه الصدري..

وخرجوا الشظايا منه بإعجوبة.. ولما صحي حكى شكل اللي شافه.. لما تجيبي العصير هقولك.. انجزي بقى.

رمقتني بكل سخط.. وأسرعت تجري نحو المطبخ.. قلت مازحًا:

- خلي بالك من العفريت يطلعلك.. هاهاها.

******

- شفت واحدة من ضهرها، كان بشع.. إدايرت براحة وشفت وشها.. كان بشع، بشع!

طبطبت عليها بحنان مواسيًا.. مخفيًا خوفًا ورهبة لما قالته.. قائلاً بلهجة متوترة:

- دي أول مرة تشوفيها؟

- أيوة.. عينيها وحشة قوي، بشعة.. حسستني إنها جمبي.. رغم إنها كانت بعيدة عننا.

(يا نهار! ما رأيناه أنا وأختي كان صحيحًا.. تظهر بالظلام والصباح.. معًا.. يا له من جبروت!)

- أمي حاكتلي عنها كتير.. وماحدش عرف ولا حكيت لحد غيرك.

تبسمت محاولة إخفاء صراخ كاد يقتلع حنجرتي..

أنا بخاف من الكلاب.... يطلعلي عفريت؟!

أمسكت يدها الصغيرة..

تبدو خشنة الملمس، يبدو أنها تساعد أمها كثيرًا في الأعمال المنزلية.. بتلك العباءة المتسخة..

نتوارى ونلعب قليلاً.. حتى أغشى الليل ستائره.. وعلى وعد منها أن تنسى كل ما شاهدته.. تعتبره حلمًا ومضى.. أوصلتني إلى المنزل..

راقبتها تسير نحو دارها الذي لا أعلم أين هو حقًا..

فقد أصبح دارها بالنسبة لي أن تذهب إلى آخر الظلام..

أمام الدار..

وقبل أن أقرع بابه الخشبي الذي مارسنا فيه فنون الرسم..

بنقش رسومات ميكي وبطوط..

منذ الأزل!!

فُتح الباب..

وجدت الجميع في انتظاري، أبي والجدة وأختي.. أبي ينظر في غضب:

- أهلاً! البيه وصل.. اتفضل خش!

دخلت بهدوء المجرم أمام ضابط الحالة..

أقر وأعترف أنني أخطأت خطأً فادحًا لا اعلم ما هو.. قال أبي بصرامة:

-كنت فين يا بيه؟ ها؟ كنت فين؟!

أخذتني الجدة في حضنها خشية أن يمزقني إربًا، قائلة بلهفة:

-والنبي مانت ضاربه.

-سيبي الواد لازم يتربى!

-علشان خاطري.. سيبه وخش انت نام.. انت دايخ من الصبح.. سيبه وأنا هعرف أأدبه كويس.

رمقني أبي في غضب، مهمهمًا بكلام ساخط.. مثل (يا ابن الكلب.. أنا هعرف أربيك)..

تنظر لي الجدة بشغف قائلة:

- كنت فين يا واد؟ أبوك داخ عليك السبع دخات.. ليه كده يا ضنايا؟ كنت فين؟ ها؟ قولي؟

قلت بتردد خائف لما قد يفعله أبي بعد تلك الصفعة التي كاد يمزق بها باب الدار ويهد العش على أدمغتنا.. وكلوه كوم وهمهماته كوم آخر:

-كنت مع صابحة.

ضربت على صدرها وصرخت:

-يا لهوي! صابحة بنت صغيرة.

قلت وقد أدهشني فزعها غير المبرر:

-أيوة مالها؟

-مالها إيه! إنتم لازم تروحوا من بكره.. يا ساااااااااااعيد.. هروح لأبوكوا، خشوا أوضتكوا واقفلوا عليكم كويس.

أغلقت علينا ذلك الباب.. وسارت مثل البيبي الصغير الذي يتعلم السير.. ما علمته وما قصه على مسامعي أبي كان كالتالي.. على لسان أبي:

دخلت الجدة في هلع.. قالت صارخة:

- طلعتله!

- هي مين دي اللي طلعتله؟

- جاتله على هيئة بنت صغيرة.

- يا ماما اهدي كده وقوليلي هي مين اللي طلعت لمين؟

محاولة التقاط أنفاسها:

- خدامة الغولة.

- يوووووووه، غولة مين وكلام فاضي مين!

- أيييوة زي ما بقولك، انت مش مصدقني يا سعيد!

قلت بنفاد صبر:

- يا ماما حكايات الغولة دي نقولها للعيال الصغيرة.. إنما الكبار!

- يا بني افهمني.. من ييجي عشرين سنة اختفت بنت بسيوني محصل النور بتاع البلد.. قعد يدور عليها لما قال يا بس.. راح لقاها مرمية في الترعة.. وعينيها مبرقين كأنها ماتت من الخضة.. راح عمل محضر في القسم إن فيه حد خطف بنته وقتلها.. ملقيوش حد.. بيطلع شبح البنت اللي ماتت دي لكل عيل في البلد.. وفي ناس بيقولوا إنها خدامة الغولة.. بتجيب العيل من دول.. وتقدمه للغولة.. وبعد خمس سنين بدأت حكايات إن أمنا الغولة بتظهر وتختفي وتاخد العيال وتشويهم.

باهتمام كبير أعطيتها ردي:

- يعني أعمل إيه؟

- تاخدوا بعضكوا وتروحوا على البيت يا بني، أنا خايفة عليكم والله.

- عندي شغل هنا وماينفعش أسيبه يا ماما.. مهران مصمم على بيع الأرض.. وأنا لازم ألحق العرض قبل ما يفوتني.

- يا بني أنا خايفة عليك وعلى ابنك.

- ماتخافيش، طالما العيال في الدار يبقوا في أمان.. كلها بس أسبوع.. وهاخد العيال ونروح.

- اللهم بلغت اللهم اشهد!

رغم عدم تصديقي لها قلت بهدوء:

- حد معاه صورة البنت اللي ماتت؟

- هتلاقيها عند بسيوني، ما انت عارفه.

- بس هو قال إن بنته ماتت فعلاً بس من مرض.

- يعني إيه يعني؟ أنا كدابة؟ متشكرين يا بني.

- لا مقصدش.. بس هو قالي الحكاية.. وقايل لكل البلد.

- روحله يا بني واعرف منه.

******

منذ بزوغ الشمس كاشفة عن غطاء قرية مجهولة الهوية.. أمسك أبي يدي يجرني جرًا نحو منزل ذلك الرجل.. لكشف حقيقة تخاريف الجدة.. بالطبع لم يبلغني في تلك اللحظات بحديثهما.. إنما قال لي إننا سوف نرى أين تسكن تلك الصابحة..

فتح الحاج بسيوني الباب المتهالك..

استقبل أبي بالأحضان.. وقال بعصبية رجولية لزوجته أن تُحضر أكواب الشاي الساخن.. بعدما تمنّع أبي.. أمسك كوب الشاي وتساءل عن آخر الأحوال.. وأنا أراقب الدار جيدًا..

لم ألمح صابحة.. كنا جالسين بغرفة جوار باب الخروج..

غرفة تحمل رحيق العطن، بمنتصفها نافذة صغيرة.. تحمل ضوء النهار.. أو لهيبها، هذا ما أصاب عينيّ بضربة شمس مؤقتة..

ولم يلحظ الكبار ذلك..

تبًا لهيئة تلك الغرفة..

تتكون من أريكة بسيطة وكرسيين.. بجوارهم منضدة تحمل راديو كبير الحجم.. دار كئيب.. لم يذكر أبي قصة رؤيتي لصابحة.. فلم أكن أعلم بحقيقة الأمر إلا بعد مرور إحدى عشرة سنة.. عندما بلغت أوج شبابي.. لمحت ظلاً ما خلف النافذة الصغيرة، قلت باحترام هادئ:

- بابا، ممكن أخرج شوية بره؟

رمقني بصرامة لم يلمحها الحاج بسيوني، الذي قال بود:

- وماله يا حبيبي.. اطلع.

قال أبي في خفوت تلمح من بينه وعيدًا بالضرب المبرح:

- ماتبعدش عن المنطقة.

بعدما ابتعدت قرابة متر واحد استمعت إلى آخر جملة نطق بها أبي (قولي صحيح.. صابحة....).

لست أدري لماذا اهتم الجميع بصابحة إلى تلك الدرجة!

أخبرني أبي عند تلك اللحظات.. عندما كان جالسًا مع بسيوني، قال أبي بنبرة حزينة:

- وبنتك حصلها إيه.. احنا اخوات يا بسيوني فضفض.. مش برضه اسمها صاحبة؟

آلمه كثيرًا ذكر اسمها.. فقال بأسى:

- دي حكاية طويلة.. بس باختصار يا سعيد.. واللي مايعرفوش حد. بنتي كانت عيانة.. وحطناها في المستشفى قيمة شهرين كده.. المهم عرفنا إن عندها مرض مش ولا بد..

أحضرت زوجته أكواب الشاي الساخن بهدوء وذهبت.. أكمل حديثه:

- الدكاترة بيقولوا الأمل فيها ضعيف.. رضينا بقدر ربنا.. احنا عالم صابرة يا سعيد والحمد لله..

- توفت..

- وسنها كان تسع سنين.

- أيوة بس اللي انت متعرفوش.. إن فيه بنت ظهرت لابني بيقولي اسمها صابحة.. وشها أبيض.. وبتلعب قدام الأرض بتاعتكوا.

قاطعني في ذهول:

- بنتي صابحة؟!!!!

- أنا ماعرفش، بس ابني بيقولي إنه شافها..

أسرع يرتدي شبشبه الخشبي القديم:

- هو قالك شافها فين؟!!

أسرعت خلفه.. خرج من الدار.. أسرعت أهتف باسمك:

- يا علاء.. يا ولد يا علااااء.

لم نرك..

أخذ يلطم الخدين.. مولولاً مرددًا:

- بنتي اتخطفت.. اتخطفت.. ياماااااااااااا.

أمسكت كتفه بعصبية قائلاً:

- أمال بتقول ماتت ازاي وهي عيانة يا جدع انت!

- كانت عيانة فعلاً.. بس مالقيوهاش في المستشفى.. قالوا اتخطفت..

ومن حينها.. لم ندع دارًا ولا أرضًا.. إلا ونبشنا عنك وعنها يا ولدي..

******

أما أنا فقد كنت هناك معها..

لمحتها هناك في ذلك الغيط..

تشير إليّ بالتقدم..

ذهبت إليها في سرعة..

ناظرًا إلى الدار..

خشية أن أبتعد كثيرًا..

تلك المرة لن يرحمني أبي على الإطلاق..

وقفت مبتسمة..

بوجهها الأبيض الدائري..

طفولي للغاية.. قائلة بهمس:

- تعالى هوريك حاجة.. عمرك ما شفتها في حياتك.

- بس أنا مش عايز أبعد، بابا هيموتني..

- ماتخافش، المنطقة اللي هنروحها مش بعيدة.

متناسيًا تمامًا أمر الاستماع إلى الغرباء..

ومن قال إن صابحة من الغرباء؟

ذهبنا نتحسس نباتات الذرة الطويلة..

وقد أخذت (كوزًا).. دون سؤال صاحب الارض..

وقفت أمام منطقة دائرية في منتصف الأرض الزراعية..

لا تحمل نبتة واحدة خضراء..

وهنا التفتت قائلة بمرح:

- هنا.

- هنا إيه بقى؟

وللحظات خُيل لي أن الشمس تغرب..

وتأكدت بالنظر إلى السماء..

أن السحب غطت الشمس بأحضانها..

سحابة سوداء..

تصلبت قدماي..

أكملت صابحة بمرح:

- هتغمض عينيك.. ومش هتفتحها غير لما أقولك.. اتفقنا.

أغمضت عيناي برجفة..

أغلقت عيناي نصف غلقة.. وأنا ألمحها تعطيني ظهرها..

وكأنما أشاهد صابحة تعلو.. حجمها.. صابحة تتضخم.. كأنما هي نبات شيطاني يستشيط شعرها بياضًا..

أعلن عن صرخة.. أصرخ.. وأنا أشاهدها تنظر لي بحركة آلية..

تنظر بعيون مشقوقة مثل عيون القطط.. وفم شبية بفم كلب.. يتدلى منه أنياب..

تصرخ... تصرخ.. يتطاير شعرها الأبيض العجوز..

تصرخ.. ويدها تلتف حول عنقي..

لا أشعر بتلك الدنيا..

وهي تقترب..

وتلمس يدي..

لأول مرة يلمس يدي وحش حقيقي..

يده تحمل اللون الأسود.

******

الزمان: ١٨٢١

اختار الأمير زهران كبير السفراء إحدى الخادمات كي تكون زوجته..

تعجب الباشا كثيرًا مبديًا اعتراضًا على ذلك الأمر.. لكنه ترك لزهران حرية الاختيار كاملة..

فقد كان ينتقي فتاة بعينها..

هي تلك الفتاة التي تُلقب (بنوران) الوردية الساحرة، أتت من عوالم أخرى..

إنها كملاك أتى وتعثر بالأرض..

تلك التي أتت من ساحات اليونان..

كي تصبح خادمة في قصر العزيز..

ومن حينها أصبح الجميع مندهشًا..

كيف؟!

لا مزيد من الأسئلة، فقد تمّ العرس..

بتأييد العزيز.

وحضر الأمراء والحاشية الحفل..

كي تعلم كم كان ذلك العزيز ذكيًا منذ قدومه إلى أرض بلادي التي أنتمي (مصر)..

لم يكن العزيز يهتم فقط بطبقة بعينها..

بل كان تدرّج المجتمع في عهد العزيز..

إلى عدة طبقات اجتماعية، أعلاها الطبقة الحاكمة (الراقية)..

وكبار رجاله وموظفي الدولة، من المتعلمين في المدارس والمبتعثين للخارج..

ثم طبقة العلماء..

والأعيان..

فالمزارعين..

وعمال المصانع..

والعربان..

والرقيق من اليونانيين..

الذي أتت منه زوجة الأمير زهران.

الذين أُسروا في حرب المورة، الشركسيات والحبشيات والسودانيات اللاتي كن يخدمن في بيوت الأثرياء..

فقرَّب إليه المسيحيين كما المسلمين..

واستعان بهم في حكمه وأدخلهم في حاشيته.

وقد مرت بعدها عدة أيام كي أكتشف أن لزوجة زهران الجديدة..

صلة مدهشة بأحد الأفراد..

تلك الصلة أصبحت لعنة.

لذلك المسكين..

حديث الزواج، الذي كان كبير السفراء.

******

الزمن: ٢٠١٤

- هااااوممممم.. نكمل بكره بقى علشان عايز أنام..

- تنام إيه بعد ما خوفتني؟

- أووووبا! يعني خوفتي.. كده خسرتي الرهان.. وبقولك إيه، بتكلم بجد أنا مش قادر وعايز أنام.

لوت بوزها في ضيق.. واضعة يدها أمام صدرها قائلة:

- راجل وصاحب كلمة.. نام نام.. أنا عارفة بتألف.. تصبح على خير.

- يووووه بقى، هو كده يا كده.. مش أنا بخرف وبزاولك.. عايزة تسمعيني ليه؟

نظرت بتحدٍ قائلة:

- وأنا قلت حاجة زي كده؟

- ها ها ها.. يعني أكمل؟

- احم.. أيوة كمل.

- خوفتي؟

- لسسسسسة.

******

الزمن: ١٩٩٠

أطفال داخل قفص..

أطفال مجهولو الهوية..

ملابسهم رثة..

ضعاف البنية..

كأنما لم يتذوقوا الطعام منذ أسبوع على الأقل..

جالسين في استسلام..

داخل كهف مظلم.. جالسين مرتعدين.. ملتصقين جنبًا إلى جنب في خوف.

من بعيد منضدة كبيرة.. أمامها جدار يحمل سكاكين صغيرة.. إلى أن تصل إلى الكبيرة.. بشكل فني.. ينم عن ذوق أصحاب الكهف.. تتساقط قطرات الماء من سقف الكهف أيضًا.. أنا معهم..

عندما أفقت.. كان كل شيء اختفى.. وظهر ذلك العالم المظلم.. يحمل ضوء مصباح داخلة شمعة يتيمة.. ودعت أجزاءها الطويلة.. منذ سنين.. وقد حملت ضوءها الأخير.. والخافت.. رمقني طفل باهتمام وهو يتألم واضعًا يده خلف ظهره.. كأنما يهمّ بالتقاط موضع (كدمة) قائلاً:

- انت مين؟

قلت بتوتر هامس:

- علاء.

- إيه؟

- اسمي علاء.

-انت اتخطفت ازاي؟

أشرت له بأن يخفض من صوته خشية أن يشعر أصحاب المكان بحديثنا.. قال بيأس:

- ماتخفش مش موجودين.

- راحوا فين؟ وهما مين؟

اقترب مني أكثر مستندًا على ذلك الجدار:

- أمنا الغولة.. وجوزها أبو رجل مسلوخة.

اتسعت حدقة عينيّ برعب..

الاثنان متزوجان؟!

احتبست الكلمات داخل حلقي..

إذن كانت حكايات الجدة صحيحة، أمنا الغولة حقيقة.. وأبو رجل مسلوخة أيضًا.. حقًا اللعنة.. وما عساي أن أعرف أكثر من هذا؟ تلك القصة لا ينقصها سوى قيام بات مان بمهمة انتحارية لإخراجنا.. قلت بخفوت:

- وانتوا بتعملو إيه هنا.

- بنتحضر علشان نكون عشاء جوزها.

- يالهوي! يعني أنا هتاكل؟!

- كلنا هنا فقدنا الأمل.. قولي هي جاتلك على شكل إيه؟

-اسكت اسكت خالص.. أنا إيه اللي خلاني ماسمعش كلام أبويا.. انت فين يا بابا!

- هاااااش، اسكت شكلهم جم.. اعمل نفسك مغمى عليك زي ما كنت.

نفذت التعليمات.. بالحرف.. وأسندت رأسي على الحائط.. وأنا أفتح عينيّ نصف فتحة.. ألمحها..

كالحية تسير بهدوء، كالسحاب.. تعطينا ظهرها.. ترتدي جلبابًا رثًا.. يُظهر فقط قطعة ممزقة من ظهرها الذي يعج بشعر أسود مخالفًا لشعر رأسها الأشيب.. وضعت (حلة.. أو طشتًا).. زوجة تعمل على إرضاء زوجها.. الذي جاء من بالوعة.. أسفل الكهف.. أتى مهرولاً.. نحوها.. يتهامسان بلغة غير مفهومة.. كأنما يتساءل عن موعد إحضار العشاء..

ألمح منخارها الطويل من ذلك الجانب.. يتحدثان.. بخفوت شديد.. أنا لا أسمع شيئًا على الإطلاق.. أتى صاحب قدم الماعز.. رأسه محنية على كتفه بشكل يوحي إليك بأنه معاق ذهنيًا.. يعرج.. يرتدي حلة قديمة رثة تلوثها دماء متجلطة.. لماذا لا يعتنون بملابسهم أبدًا؟ فتح قفص مجاور.. أمسك يد طفلة في نهم.. كأنما أمسك بجناح دجاجة.. ويستعد لجز عنقها.. تصرخ الفتاة قائلة:

- لا والنبي سبني.. بلاش أنا والنبي.. والنبي.. لا لا، يا ماماااااااااااااااا لا.

وضعها على المنضدة الكبيرة.. كبل أطرافها بعناية.. صراخ الطفلة يصم أجسدانا.. أمسكت طرف سكين صغير.. نحو يدها الصغيرة.. تقطع كف يدها.. الفتاه تصرخ (آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآاااه.. لا والننبييييييييييييييي.. لاااااااااااااااااااااااااااااااااا.. آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآااه)..

صراخ لا ينقطع بعدما قطعت كفها الصغير وألقت به نحو وعاء ساخن..

هبّ أبو رجل مسلوخة ممسكًا بذلك الساطور وهو مبتسم في جنون.. يقطع رقبة المسكينة.. سمعنا صوت تكسير عظام الفتاة.. مثلما كنا نشاهد قطع رقبة خروف العيد.. إلى أن أسلمت روحها إلى بارئها.. تاركة جسدها يُقطّع بهدوء..

صرخت وتعالى صراخي..

لمحتني السيدة الشمطاء..

أنا وحدي..

الباقون تجمدت الدماء في عروقهم..

فقد تعودوا على رؤية تلك الأشياء قبل مجيئي..

رؤية الدماء أصبحت روتينية للغاية.

سدّ فمي ذلك الصبي بثبات..

وهو ينظر لهم نظرة متفاهمة.. كأنما يُعلن أنه حارس ذلك القفص.

******

الزمن: ١٨٣٠

أصبحت عجوزًا..

ولم يتخلَ عني بعد العزيز، رغمًا من أن الشيب انتاب فوديّ.

وامتلأت يدي بعروق زرقاء لاحظتها خادمة وهي تعطيني ورقة قد وجدتها أسفل غرفة إحدى الخادمات..

فأسرعت مبتعدة..

تركتني أعيد الشرود في يدي لأتذكر مخالب الزمن..

بل!

تلك الورقة منحوتة بها رسومات يونانية عجيبة..

اتسعت لها عيناي.

صور الملوك القدامى موضوعين في خانة الإعدام..

بل إنهم كانو موضوعين على شكل المصلوبين..

حيث تقوم امرأة بقراءة تلاوات مجهولة..

رسمت بجانبها الأيمن شكلاً شيطانًا.. هيكلاً عظميًا بقرون عاجية..

وضعت له الأرقام من كل جانب..

جماهير من أصناف البشر الفلاحين..

تنظر للمسكين المعلق..

كانت الجماهير ترهب المرأة..

كأنها الملكة..

حيث تنتهي أسفل تلك الصورة..

بكائن مجهول مرعب..

وضع طفلاً بفمه..

فقد كانت تتدلى من فمه قدما طفل بريء..

كيف يحدث ذلك الشيء؟

كيف يُدنس القصر بورقة ملعونة كتلك؟!

وضعتها بجيب بنطالي..

سوف أبحث في ذلك الشأن فيما بعد..

وحتمًا سوف أجد صاحبة تلك الصورة اللعينة..

أتممت مراسم العشاء..

ناظرًا إلى تلك الساحات الواسعة التي تنتشر حول القصر..

كيف فعلها مثلي الأعلى..

كيف صنع جيشًا لا يشق له غبار..

تذكرت تلك الأيام..

كانت محاولة الباشا الأولى لتأسيس جيش نظامي عام ١٨١٥ ..

عندما عاد من حرب الوهابيين..

حيث قرر تدريب عدد من جنود الأرناؤوط الألبان التابعين لفرقة ابنه إسماعيل..

على النظم العسكرية الحديثة..

في مكان خصصه لذلك في بولاق..

كان ولده إسماعيل يحمل إرث والده العقلي.. في التنظيم المثالي والنظرة الثاقبة للبشر..

لذلك اجتمع الجنود الذين لم يرق لهم الوضع، بسبب طبيعتهم التي تميل إلى الشغب والفوضى..

فثاروا على محمد علي وهاجموا قصره ودار بينهم وبين الحرس قتال..

استطاع خلاله حرس محمد علي السيطرة على الموقف..

إلا أن محمد علي أيقن أنه لا يمكنه الاعتماد على مثل هؤلاء الجند، فأرجأ تنفيذ الفكرة..

كنت حينها مدير الخدم..

مشرفًا على خروج الطعام..

لا مجال للأخطاء..

تعلمت على يد العزيز الكثير في انتقاء العاملين..

أنتقي الجدية، سواء في النساء أو الرجال..

كنت قريبًا إلى قلبه كثيرًا..

كان لا يحمل لي سوى الكثير من التواضع..

كأنني أحد أبنائه..

لذلك كان أحد أهم الدروس..

لا أحد يتنصت..

لا أحد يتحدث كثيرًا.. الجميع من أجل العمل..

لطالما كان العزيز مقتنعًا أن كل فرد خُلق من اجل هدف..

حتى لو كان مجرد خادم بذلك القصر..

هو خُلق من أجل هذا..

وهو خُلق أيضًا كي ينهض بنا إلى مصاف الدول الباقية..

نحن بيدٍ أمينة..

تعاودني ذكرى حلوله في تطوير الجيش..

وأنا أنظر إلى مساحات الأرض الواسعة التي امتلأ بها الأخضر..

لجأ الباشا مجددًا إلى الحيلة..

ففي عام ١٨٢٠ أنشأ محمد علي مدرسة حربية في أسوان..

وألحق بها ألفًا من مماليكه ومماليك كبار رفقائه..

ليتم تدريبهم على النظم العسكرية الحديثة على يد ضابط فرنسي يُلقب بجوزيف سيف، جاء إلى مصر وعرض خدماته على محمد علي..

تلك الخدمات التي راقت له كثيرًا..

وبعد ثلاث سنوات من التدريب، نجحت التجربة وتخرجت تلك المجموعة ليكون هؤلاء الضباط النواة التي بدأ بها الجيش النظامي المصري..

******

الزمن: ١٩٩٠

لا يوجد ضوء طوال الساعة التي فاتت سوى ضوء تلك الشمعة..

الفتاة سُلخ جلدها من لحمها كالخراف..

وقد (شفّوا) جلد الذراع إلى القدم بعناية..

وضعوا بواقي أمعائها في تلك الحلّة التي كانت موضوعة فوق حطب النار..

من أين أتى هؤلاء القوم؟

أنا لن أوضع على تلك المنضدة أبدًا..

سوف أقاوم!

كما علمني أبي..

نعم سوف أقاوم..

أنا أكبر هؤلاء الأطفال حجمًا..

بكيت طويلاً وأنا أتحاشى النظر إليهم..

أحضرت الحساء لذلك الوغد..

الذي التهمه كالخنازير في مقلب القمامة في نهم..

أتت فتاة صاحبة هالة بيضاء..

جميلة رغم عدوم وجود حدقة في عينيها.. أتت كالحالمة تقول شيئًا ما.

قال زميلي في الزنزانة بخفوت:

- دي النداهة.

- هي نقصاها!

- لو تبطل تصوّت زي البنات الصغيرة.. هعرف أحكيلك حكايتهم واحد واحد.

قلت بيأس خافت:

- كده كده ميت.. احكي.

ألصق فمه بأذني ناظرًا إليهم باهتمام، قبل أن يحسم الذي يجثم على صدره ويقول:

- الست دي كانت عكس ما انت شايف خالص، كانت جميلة جدًا.. اتجوزت وكانت عقيمة.. مابتخلفش.. جوزها كان بيعذبها بطريقة وحشية.. من نزع ضوافر رجليها وإيديها.. كان سادي.. وكان بيقول إنه هيتجوز اللي تجبله عيال.. ومن هنا كرهت الراجل ده.. وكرهت كمان الأطفال اللي خلوها تتعذب.. ومن هنا قررت تنتقم من كل الأطفال..

قاطعته بصوت خافت:

- انت بتضحك عليا.. والأطفال هم اللي خلوها مسخ بشع بالشكل ده؟ دي ليها أنياب وبتتحول لأشكال عجيبة.. دي جاتلي في شكل طفلة!

- اصبر عليا لما أكملك الحكاية للآخر قبل ما تسمعنا.

- احكي!

- جوزها حبسها في دارها لمدة أسبوع من غير أكل وشرب.. لاقت كتب سحر.. كتب تحضير للجن.. ظهرلها العفريت.. ومسخها بالشكل ده علشان تنتقم من كل الأطفال.. ده كل اللي أعرفه.

- طيب وأبو رجل مسلوخة؟

كنت أهمّ بقول (ايش لم الشامي على المغربي)..

أكمل:

- ده بقى بيقولوا عليه كان طفل معاق.. والست دي بدل ما تقتله لعنته.. وحضّرت في لعنة من كتاب السحر لحد ما اتمسخ.. أنا سمعت إنه كان طفل معاق.. كبر وتقريبًا اتجوزته.

- يا عيني!

- هو صعبان عليك! ده أكل رباب قدام عينيك!

- مش ذنبه.. هي اللي خلته ياكلها.

- تصدق معاك حق.

أكملت وأنا أنظر إلى عمق الكهف.. خشية أن يأتوا ويحين موعد العشاء:

- هما بيغيبوا كده كتير؟

- كتير قوي.. وبييجوا فجأة بشكل يخض.. الأطفال اللي اتبقوا هنا في القفص شبه متعودين.. مرة جايبين طفل.. ومرة لا.

- ماحكتليش عن النداهة.

- آآآآه النداهة.. النداهة كوم وكل اللي انت شايفه كوم تاني خالص.

- احكيلي!

- بيقولوا إن النداهة كانت بتحب واحد حب جنون.. قصة حبهم كانت كل الناس بتتحاكى بيها.. لحد ما ختمت قصتهم بالجواز، وده طبعًا غاظ أختها الشريرة.. أختها التوأم.

- مش ده حرام؟

- لو مابطلتش تقاطعني مش هحكي حاجة.

- أنا آسف يا عم.. احكيلي.

تنهد كالأستاذ أمام تلميذ بالصف رسب بمادة الذكاء، ثم أكمل:

- أختها دي كانت شريرة.. شر إسود.. كانت بتمارس شعائر وطقوس السحر الأسود.

سحرت لجوزها وأوهمته إنها هي حبيبته ومراته، والتانية تبقى الشريرة.. وفجأة جت المسكينة لاقتهم في وضع وحش.. وقبل ما تصرخ.. كانوا محضرين لها موتة بشعة حسب طقوس السحر الأسود.. إنه يموت الروح ويستحضر قرينتها.

- يعني إيه قرين؟

- يعني أخوك من العالم الآخر.. عالم الجن يعني.

- يعني دي بقت جنية؟

- مش كده.. السحر انقلب عليهم.. تتحول لجنية وترجع إنسية.. والوقت ده فكت قيودها وموتتهم. بس جثة أختها الساحرة مش معروف مكانها..

هربت النداهة.. ومن ساعتها اعتبرت إن جنس الرجال جنس خائن مايستحقش غير إنه يموووووت.

- طب وإيه حكاية إنها تنده على الرجالة زي ما تيتة كانت بتحكيلي؟

- دي بقت شغلتها.. إنها تجيب أي راجل وتنده عليه من بعيد.. انتقام من نوع وأصناف الرجال كلهم، واللي تنده عليه النداهة ده يُعتبر خلاص انتهى. الأهل والقرايب بيحضروا حفل وداعه.. واللي اتحبس في بيتهم يصحوا تاني يوم يلاقوه جثة.

- محاولتش تهرب؟

ابتسم في سخرية قائلاً:

- أهرب من مين.. طيب حاول تقوم تقف وتمد إيدك بره القفص شوف إيه اللي هيحصل.

لم يكمل باقي الجملة.. وقفت في تحدٍ ومددت يدي خارج القفص الحديدي.. ناظرًا إليه وأنا أقول:

- ها؟ هيحصل إيه؟

نظر بفزع إلي شيء تقريبًا عند يدي.. وجهت رأسي بهدوء صوب المكان الذي ينظر إليه..

قرابة متر واحد كانت أمنا الغولة نفسها.. أمام موضع يدي.. تبتسم بعينيها المشقوقتين.. وتهمّ بقطم يدي.. سحبتها في سرعة وبالطبع أطلقت صرخة فزع.. يدي نجت مؤقتًا.. وهرولت جالسًا أمام الزميل.. الذي كان يرمقها وقد تجمدت عروقه..

وعندما جلست جوار زميلي قلت ناظرًا له ودمع الصراخ في عينيّ:

- ازاااااااي ده حصل؟ جت ازاي؟

لم يُجب وهو ينظر إليها بخوف واحترام..

اختفت..

لا تعلم من أين ظهرت وأين غارت..

قال:

- مش قلتلك!

- أنا عايز أمشي من هنا.

- ساعاتك في الدنيا معدودة.. أنا بوصيك تنقل اللي قلتهولك لو اتكتبلك تخرج من هنا لكل الناس.

- اسكت.. اسكت طيب.. يا رب تموت محروق.

همّ بقول شيء ما..

بالفعل كانت تلك آخر كلماته.. قبل أن يُسن ذلك الساطور.. ويُجز رأسه التي سقطت راسمة علامات الفزع..

في تلك الليلة..
فقد كانت قدمه محشورة داخل أمعاء.. أبو رجل مسلوخة، مع الأسف.

****

الزمن: ٢٠١٤

- باس باس باس.. كفايا اشتغلات بقى..

- برضك مش مصدقة؟

- أصدق مين؟ أنا أراهن إذا ماكنتش مألفها حالاً دلوقتي.. لما لاقتني ابتديت أخاف.. ابتديت تزيد فيها.

رمقتها بكل صرامة.. فقد أخذت البطانية وهي تعطيني ظهرها الأملس في لا مبالاة واضحة، قائلة:

- اعتبر مفيش رهان.. طالما دخلت في التأليف.

عندما تُقلل المرأة من شأن الرجل.. تود حقيقة لو قتلتها كما تُقتل الساحرات الملعونات في ميدان عام.. قلت بصرامة الكون:

- يعني انتي فكراني بكذب على حضرتك.

- عايزة أنام.. تصبح على خير.

- أنا هعمل حاجة صغيرة.. وبعدها بجد هيكون زعلي منك كبير.. بجد مش هزار.. علشان اللي بيني وبينك من البداية الثقة يا هانم.

انتبهت لي بكل شغف.. معطية لكنة ساخرة ليس لكلمة زعل.. بل للشيء الملفت في الحوار:

- هتعمل إيه؟

- بابا كان بيدور عليّ لمدة أربع أيام متواصلين.. وأكيد محضر الشرطة دليل على صدق كلامي يا هانم.

- يعني انت عايز دلوقتي تعمل إيه.. أنا مش فاهمة؟

بصرامة هادئة أمسكت هاتفي المحمول وقلت:

- اتصلي ببابا ويحكيلك بنفسه.

- اقفل يا مجنون!!! انت عارف الساعة كام؟ الساعة داخلة على تلاتة ونص..

- لا فكك، أنا لازم أثبت صدق كلامي مش علشان الرهان، لا.. الموضوع موضوع ثقة يا هانم!

- يوووه يا علاء، هتصحي أبوك علشان حكايات عيالي؟

- ألووو.. أيوة يا حاج معلش صحيتك.. لا مفيش أي حاجة.. الولاد بخير.. ودعاء كمان بخير.. لا مفيش، كنت بحكي لدعاء على الحكاية اللي حصلتلي زمان.. آه الحكاية اللي حصلت في البلد.. خدها معاك أهي..

أخذت الهاتف بلهفة:

- احم احم، معلش يا حاج صحيناك وقلقنا نومتك.. بس ابنك بقى، ههههه.. ربنا يخليك لينا.. هو صحيح الحكاية بتاعة أمنا الغولة؟ انت بتضحك ليه؟ ولا يهمك.. اختفى بجد؟ طيب سؤال كمان، هي صابحة فعلاً ماتت؟

تاني بتضحك.. آه.. امممم... تماام.. طيب.. لالالا، ابنك مش هينيمني النهارده.. رهان كالعادة على مرواح الشغل يا حاج.. تسلم يا رب.. مع ألف سلامة.

نظرت لي بخجل الكون.. أما أنا فوضعت يديّ أمام صدري بصرامة.. رافعًا حاجبي الأيمن.. قالت بخفوت:

- معلش يا حبيبي.. أنا غلطانة.. انت عارف كويس إني بثق فيك.. بس برضه اعذرني دي أول مرة أسمع فيها حكايات زي دي.. معلش.. سامحني بقى يا رخم.

- كده أقول الرهان اتلغى وتصبحي على خير.. ورايا شغل الصبح.. وحضرتك قاعدة.

- لالالا، وحياتي عندك.

قبلت طرف يدي بحنان.. أنا لا أقوى على ذلك بكل أمانة.. احتويتها في حضني كالأطفال.. قالت:

- كمل.

******

الزمن: ١٩٩٠

انتظرت دوري على قائمة العشاء..

أو الغداء..

ظللت يومين متواصلين أتعلم البرود..

أو بمعنى آخر (البلادة)، أرى دماء زملائي تُزهق على أيدي هؤلاء الوحوش التي لا تعرف معنى الرحمه الإنسانية..

حقًا ويل لهم..

حتى أصبحت صرخاتي صامتة..

لا أعبأ برؤية..

يد..

قدم..

أمعاء..

فم مفتوح على مصراعيه كالمقص..

عنق مفتوحة على مصراعيها.. يخرج أبو رجل مسلوخة منها الحنجرة.. يضعها في فمه في نهم..

أين دوري؟ ألن يأتِ؟

الجميع يأخذ دوره حسب ترتيب قدومه، ذلك الجدول.. أخيرًا جاءت النجاة.. أتى ذلك الوغد حاملاً دلوًا يحمل ماءً يضعه أرضًا.. يصب به كوز كبير.. يضعه داخل القفص ناظرًا لأي طفل.. يهرع مسرعًا مختطفًا الوعاء، يصب الماء بأكمله في جوفه.. يغضب أبو رجل مسلوخة، يزدرد

زمجرة.. كيف تنسى زملاء القفص.. يهرع الصبي ليسقي زملاءه العطاشى..

حتى أتت لي.. أروي عطشي في نهم..

لا أبالي بانسدال الماء على صدري..

فكنت الأخير..

أعطيتها لذلك الطفل الودود..

جلس جانبي زميل آخر.. يبدو أن من يتحدث معي يكون على مأدبة العشاء تقريبًا.. مثلما حدث من الآخر.. قال الطفل بلهجة وأسلوب الكبار:

- انت عارف قصة الست دي إيه؟

- عرفت من واحد ماعرفش اسمه.. حكالي قصتهم.

- حكالك إيه؟

- قالي إن الست.............. والراجل ده معاق..

- كداب.. الست دي جنية من الأصل.. وكسرت العهد.. وجابت معاها أبو رجل مسلوخة من عالمها..

يبدو أن ذلك الراوي السابق كان كاذبًا.. لا يوجد لي سبيل سوى تصديق أي نفر يجلس بجانبي.

- وانت إيش عرفك؟

- واحد كان قاعد زيك وحكالي عنهم.. بيقولوا إنها حبت واحد من جنس البشر.. اتجوزته.. وجابت منه قطيع من الـ...

طرق القفص أبو رجل مسلوخة بهدوء.. معلنًا بدء ساعة العشاء.. بالطبع وقف الراوي الثاني قائلاً في استسلام وقد تملكته روح الإحباط:

- أنا جايلك لوحدي.

فتح القفص في نهم القرود.. أمسك بيد الطفل.. حتى تسلق المأدبة.. قائلاً:

- اقطع راسي الأول.

أومأ أبو رجل مسلوخة بالإيجاب.. مدد الساطور.. ورفعها لأعلى.. ووجهها نحو قدم المسكين.. الذي أطلخ صراخًا.. وقدمه تفتح نافورة لا تنقطع من الدماء..

من الواضح أن أبو رجل مسلوخة يتمتع بغباء منقطع النظير..

يستمتع بصراخ شخص حي..

أو هي حالة شاذة من الاستمتاع..

وبالقتل البطيء..

لا يوجد أطفال في اليوم الثالث سواي وطفلتان.. تحاشيت الاقتراب منهما.. بسبب العاطفة..

التي كانت على وشك الموت..

والأطفال تُذبح كالدجاج..

تأتي تلك العجوز من آن لآخر تراقب العدد وتذهب..

يبدو أن أهل القرى أفلسوا أخيرًا.. ولم يتبقَ نواح لدى صدور الأمهات..

فقد أخذت تلك اللعنية أطفال القرى الأشقياء الذين يمرحون بعيدًا عن الدار..

السؤال هنا..

ماذا لو استمع باقي أطفال القرى لكلمات الآباء..

ولبثوا بالمنزل في أدب..

هل سوف تكتفي تلك الأفعى؟

أم سوف تتجرأ بدخول البيوت..

وتقتلع النبتات الطيبة من أحضان آبائها..

اقترب أبو رجل مسلوخة من مؤخرة الكهف.. ظله كلسان كلب متدلٍ.. لم يلبث دقائق معدودة حتى ظهر بهيئته..

ممتلئًا بالشعيرات السوداء.. كالقرود.. إن لم يكن في الأصل قرد محور جينيًا..

اقترب وهو يعرج. أشبه بكينج كونج.. (بضب).. عيناه تسبح داخل حدقة حمراء..

اقترب من القفص وكأنه رأى شيئًا غريبًا.. إنه يراني..

اقترب وهو يعرج كالأوزة..

وصولاً إلى الزنزانة التي أقبع فيها..

اشتم رائحة على ما يبدو..

أسرع يركض مبتعدًا.. من حيث أتى..

ذلك الوغد سريع إلى درجة مدهشة..

وعندما يسير الهوينى.. يبدو كسلحفاء عرجاء.. أتى بتلك الشمطاء.. تسبح على الأرض مقتربة بهدوء مفزع.. يسير جوارها.. كالأبله.. أشار لها نحو سقف الكهف.. نصحها بأن تستخدم أنفها..

أنا لم أتبول بعد!

وقفت كعادتها وهي تعطيني ظهرها البشع الصارخ بشعيرات سوداء..

نظرت جوارهما.. هناك لوحة مطلة عبر لوحات زيتية متروكة بإهمال خلف أريكة متهالكة جوار منضدة الموتى..

هل هذا محمد علي ملك ملوك مصر في العصر القديم؟

يتهامسون الآن!!

لو كنت بمنزلي الآن.. لكنت مغمض العينين مستريح الجسد.. مستمتعًا بأحاديث الوالدين..

هكذا كنت أشعر بالأمان..

لكن هنا.. يتحدثون بلهجة عجيب..

ليست بلهجة حيوانية.. مثل لغات الكائنات الفضائية.. ذلك لو كانت الجدة تعلم شيئًا عن وجودهم!

(ضاللوم.. يزياك.. بلاكوماديش..)..

ما تلك اللغة الدفينة؟

لم أسمعها من قبل..

صراخ يأتي من أعماق تلك الحفرة..

ذلك الصوت أعلمه جيدًا..

بالطبع..

كلا..

إنها أختي الرعديدة الصغيرة..

أسماء..

إنهم يقرأون أفكاري!!!

******

الزمن: ١٨٣١

قد تطاول عليّ المرض..

أصبت بمرض نادر..

اجتاح هيكلي العظمي، أصبحت بلا هيبة مطلقًا..

زارني العزيز مرات ومرات..

هو وأبناؤه..

كم كان يتمتع بحس إنساني كبير..

لم يكن أحد يعلم سر ذلك المرض..

ولكن يبقى السر داخلي..

من عام ١٨٢٥..

كنت قد تناسيت أمر تلك الورقة..

بعدما يأس التعب من أركاني حينها..

فصببت كل مجهودي من أجل العمل فقط..

في تلك الليلة التي اشتد بها مرض الأنفلونزا على ولدي الصغير..

ذهبت مسرعًا لإحضار الدواء الخاص الذي تم شراؤه من قبل مزارع فرنسي..

أثناء مروري جوار مطبخ القصر..

أنصت إلى صوت أتى من الأسفل..

إحداهن تتوسل لأخرى..

غريب!

شبيه بزمجرة أسد ترتفع..

صوت مألوف للغاية يقول: أرجوكِ أعيديه كما كان..

هبطت الأدراج في حذر خشية الوحش الذي ارتفع زئيره..

خشيت إرسال الحرس فينزعج العزيز..

تكفيه حربه الأخيرة للدفاع عن الإسلام..

الخطر موجه ضد دولة المسلمين أجمعين، المتمثلة في الدولة العثمانية..

وضد الإسلام ممثلاً في السلطان العثماني خليفة المسلمين..

بعدما قام بحملة عسكرية بقيادة حسن باشا، نزلت في جزيرة كريت وأخمدت الثورة فيها..

لن أزعجه بمشكلات تحدث في ذلك القصر ما دمت أنا فيه..

هناك شخص ما يقف خلفي.. يهبط الدرج معي.. التفت في حذر محاولاً اختراق ظلال الظلام..

لا أحد..

إنه مكان الخادمات اللاتي أتين من اليونان..

يا ويلتي..

كيف أتى هؤلاء إلى هنا..

المشهد مفزع..

******

الزمن: ١٩٩٠

كنا موضوعين في قفص..

تبكي أختي وتنوح..

أخذنا بعضنا البعض بالأحضان..

تماسكنا قليلاً برؤية كل منا للآخر..

صراخ ودموع حتى تورمت عوينات أختي المسكينة.. قائلة بشحتفة:

- قاااعدنا.. فاااااات فاااااات.. (تنشج).. ندور عليك.. بابا غاب عن البيت وسابنا أنا وتيتة نعيط عليك..

- طيب ممكن تهدي شوية وتحكيلي الست دي جابتك ازاي هنا؟

فاااات فااااااات.. تيتة راحت تجبلي أكل، الأوضة منورة بلبمة سهاري.. سرحت شوية لاقيت اللمبة اللي في الحيطة طفت.. وحسيت بنفس جمبي.. نفس قريب من وشي قوي.. ومرة واحدة لاقيت عيون قطط كبيرة بتلمع قدامي.. ومحستش بالدنيا.. أغمى عليا.. فتحت عيني لاقيتني قدام الأرض الخضرا.. ومافقتش غير والست دي شيلاني وجايباني الكهف.

يجب أن أجد حلاً فوريًا.. الباقون لم يفعلوا شيئًا للنجاة.. أي شيء.. طالما كده كده ميت..

لا ضير من المحاولة..

- انتي عارفة الست دي تبقى مين؟

لم تجب، فأكملت باقي القصتين..

بقيت تصرخ وتستنجد بأمنا..

أما أنا فقد هدأت..

فقد تخيلت جميع قصص الجدة حقيقة الآن..

ربما تجدي تلك المحاولة..

******

ليت أختي لم ترَ تقطيع أفراد من الصبية في وجودها.. لأطلقت غرغرينة طلوع الروح..

ها قد سنحت الفرصة..

الغولة معطية ظهرها..

تفعل شيئًا غير معلوم..

اقتربت من القفص حتى أصبح وجهي ملامسًا للعواميد الحديدية الصغيرة..

الباردة..

رددت بصوت هادئ مقطعًا صغيرًا من الغناء..

- أمنا الغولة.. طقطقي الفولة، بتعملي إيه..

نظرت أختي بكل دهشة متعجبة من تلك الخطوة الطفولية..

اهتزت قليلاً..

كالذي أصيب بمس من البرد القارس..

رددت مرة أخرى:

- أمنا الغولة طقطقي الفولة، بتعملي إيه.

خرجت من فمها كلمات عربية مفهمومة، تحمل غضبًا حيوانيًا كغضب الأفعى..

- بحضر الغداء..

يا إلهي..

كانت صحيحة تلك الأقصوصة..

الأسطورة حقيقية..

انصعقت أختي منكمشة أمام الحائط..

- أمنا الغولة، طقطقي الفولة، بتعملي إيه..

- بسن السكاكين..

وهنا انزاحت عن المائدة.. تنظر لنا بجنون..

عيناها انقلبت إلى اللون الأحمر الناري..

تُمسك عنقها وكأنها تختنق..

تُطلق زفيرًا مختنقًا..

معترضًا..

إنها تكرهنا حقًا..

تدير رأسها بآلية.. تكاد رؤيتها تطيح برأسي شيبًا.. بتلك الاستدارة إالتي تشبه إنسانًا آليًا عصريًا.

فقط طوحت بسكينها الحاد موجهًا بكل غضب نحونا.. أنقذتنا الجدران الحديدية..

نظرت إلى الفتاتين المتبقيتين جوار أختي.. وطلبت منهما أن ترددا معي..

في نفس واحد مرتعد من الفتيات:

- أمنا الغولة، طقطقي الفولة، بتعملي إيه..

سدت أذنيها في ألم وأطلقت صرخات عالية خالية من الشفقة..

أتى مهرولاً كعادته، ذلك المأفون الأعرج.. أبو (زفت) مسلوخة.. يحاول تهدئة روعها..

تضربه بكل قسوة..

على وجهه..

ضربة أخرى كسرت ساقة الهشة التي تُشبه الماعز.. وقع أرضًا يتأوه ككلب أجرب فقد إحدى ساقيه..

ولانزال نردد ذلك النداء..

أطاحت بالمائدة..

الرجفة اختفت من داخلي..

وقد تملكتني شجاعة منقطعة النظير وأنا أقف موجهًا حديثي إليها..

الفتاتان ترددان معي جملة واحدة..

والعجوز تطيح بطبق هناك.. وتكسر زجاجة..

تصرخ..

تقع أرضًا..

تنظر لنا..

ثم تزحف نحونا في سرعة جنونية..

وتحولت عيناها إلى اللون الأبيض..

******

- أنا خفت بجد.

- ها ها.. القصة لسه ماخلصتش.

- أكيد ضربتها بحاجة بعد ما فقدت السيطرة على نفسها.. هو ده بقى اللي خوتني بيه من الصبح.. بعدها ماتت.

قلت بلا مبالاة:

- هاتسبيني أكمل.. ولا تكملي استنتاجاتك العبقرية؟

- علاء، انت كسبت الرهان.. ومش رايحة الشغل خلاص.

- قوام كده! مش عوايدك.. كنتي بتعافري معايا عن كده. تؤ تؤ تؤ.

- بس بقى بطل تريقة.. حتى لو فرضت إنك بتألف عليا.. انت قدرت تخوفني.. مبروك يا سيدي.

رمقتها بكل غضب الكون قائلاً بصرامة وأنا أجز على أسناني:

- لسه برضه بتشككي في كلامي؟

- لالا خلاص يا حبيبي، انت صادق.

- دي المرة الأخيرة.. وأنا هديكي العذر بس علشان اللي بقوله فيه شوية خيال.

أمسكت موبايلي في صرامة.. قالت بلهفة:

- هتتصل بمين تاني.

- استني!

- ألووو.. معلش يا أسماء صحيتك.. عارف إن الساعة بقت أربعة الفجر.. معلش يا حبيبتي.. في حاجة كانت دعاء عايزة تستفر عنها.. أنا مش هقول ولا ألمح بس معلش عايزك تقوليلها كلمة واحدة تصدق اللي بقوله.. علشان يظهر إن الست مش واثقة في جوزها.. خدي معاكي أهي.

أعطيتها الموبايل.. كعادتها تمسكت بلهفة كالمرة السابقة:

- معلش يا أسماء يا حبيبتي.. بخير.. لا بس هو موضوع بسيط قوي.. هو انتوا فعلاً اتخطفتوا زي ما بيقول؟ موضوع أمنا الغولة.. إيه بس مالك؟ أنا آسفة.. لا أنا مش بفكرك.. يووووه، إيه إلى أنا عملته ده!

أعطتني الهاتف بصوت هامس:

- خد، بايني طينت الدنيا.. شكلها بتعيط.

- ألوو، معلش يا أسماء.. لا أبدًا مش بنفكرك بحاجة.. انتي مش عارفة دعاء يعني.. حب استطلاعها هيودينا في داهية.. معلش حقك عليا.. اهدي بقى.. ماشي يا حبيبي.. بوسيلي العيال.. وانتي كمان.. سلام.

قلت بكل غضب:

- قلتلها ليه بس؟

- يا سلام! إيش حال مانت بنفسك اللي متصل بيها.

- ماهو لو كنتي حضرتك مصدقاني من الأول ماكنتش صحيت واحد واتنين.

- يعني أنا اللي طلعت غلطانة؟

- لا أنا ولا انتي يا ستي.. تصبحي على خير.

- هتنام؟

- لاء، هعيش الوهم.. نامي بقى ورايا شغل الصبح.

- يعني كده.. تضحك عليا وتكسب الرهان.

- ماحدش ضربك على إيدك وقالك تتراهني!

- طيب ممكن تكملي الحكاية؟ وعد مش هقاطعك.

- وتسيبيني أنام بعدها؟
- أوعدك.

******

زحفت أرضًا وصولاً إلى باب زنزانتنا..
تُحاول الإمساك بأحدنا..

التصقنا ببعضنا البعض..

وأنا بالطبع في المنتصف أحميهن.

أختي لا تكف عن الصراخ..

الفتاتان اكتفتا بالتماسك دون أن تصدرا صوتًا..

أمنا الغولة كأنها ماتت..

أو نامت على تلك الأرض الرطبة..

أين ذلك المفتاح اللعين..

ألا يوجد أحد العساكر يحمل مفتاحًا ها هنا يا قوم؟

قلت بخفوت موجهًا حديثي للجميع:

- هو راح فين؟

قالت إحدى الفتيات بهدوء:

- هو مين؟

- أبو رجل مكسورة.. قصدي مسلوخة.

قالت أسماء بجزء من التماسك:

- أنا شفته بعد ما رجله انكسرت.. جري في آخر المغارة.

- هو اللي معاه المفتاح.. علشان نخرج لازم نلاقيه.

- وانت إيش عرفك؟ مش يمكن مامتتش ولسه صاحية؟

وعند ذلك القول.. نظرت الحية لنا..

أمنا الغولة وقفت كأنما لم تعانِ منذ قليل..

وضحكت بفحيح أفعواني..

أحتاج لحلول..

لو كانت من الجن فآيات قرآنية كفيلة بمحوها عن الوجود..

ماذا أفعل..

- أمنا الغولة طقطقى الفولة.

نظرت لي بوحشية بعينين بيضاوين خاليتين من الحدقة..

فُتح القفص دون مفتاح..

- يااااا، امسكو فيّا يا بنات..

اقتلعتني من مكمني.. دون أن تمسني.. فقد حملني الهواء.. ووضعتني على المائدة.. التفّت حول يدي قيود، حاولت المنازعة..

السكين تتحرك في الهواء.. متجهة نحو قطع أحد أطرافي.. صرخت:

- أسمااااااااااااااء رددي.. رددوا.

أصوات البنات يقلن: أمنا الغولة طقطقي الفولة، هتعملي إيه..

وقعت السكينة..

تنظر للفتيات بكل شراسة.. القيود انفكت.. كل الممر الطويل أمامي.. أمسكت بالساطور الكبير..

ووجهته نحو تلك الشمطاء.. وليحدث ما يحدث..

دخلت القفص وحدها مع الفتيات..

أمكست بشعيرات الفتاتين بيدها اليمنى..

وأختي أسماء باليسرى..

صرخت:

- سيبيييييييييييييييهم يا بنت الكلب!

طار الساطور من يدي.

هبّ من خلفي أبو رجل مسلوخة..

نظرت خلفي لأرى وجهه المبتسم الأبله الشبيه بالقرد.. يحني رأسه على كتفه الأيمن..

هربت منه..

أنا ماهر جدًا في ذلك الأمر..

أعرج يجرى خلف صبي..

فقد ذلك الأبله الكثير من مهاراته..

اقتلعت بقسوة شعيرات إحدى الفتيات.. دماء في رأس الصغيرة.. وصراخها يعج المكان..

أين النهاية؟

ألن تأتي بعد؟

صوت أقدام كثيرة أعلى المغارة أنصتت لها الشمطاء بحذر..

نظرت للأعرج.. الذي فهم معنى تلك النظرة.. وهرع نحوي..

وضعت الفتيات أرضًا.. كأنهم في زمن الحروب.. تخشى عليهم من رصاصات العدو..

وفي حذر خرجت سابحة على الأرض..

لا تبالي بوجودي.. فالأعرج سوف يتولى شأني..

وجدت مطواة صغيرة.. أمسكتها في فزع متوتر.. موجهًا إياها نحو ذلك الوغد..

أمسك يدي بقسوة.. أوجهها نحوه يمينًا ويسارًا فاتحًا فاهي بلا سبب داعٍ..

محاولاً إصابته أي إصابة..

أبعد يدي..

التي تُمسك بالسكين..

مقتربًا بأنفاسٍ حارة نحو يدي الأخرى.. سوف يقطعها بلا شك.. ركلته في أمعائه البالونية..

ولم يعبأ..

فقط هي محاولات من يحاول الخروج بأقل الخسائر..

في تلك اللحظات وضعت تلك الشمطاء أسماء على المنضدة..

تربطها بعناية وهدوء..

صرخات أسماء تتعالى..

محاولاً تفادي أنياب ذلك الغوريلا..

أنظر لها..

المرأة الغولة..

تتمسك بملابسها من الخلف وهى تنظر لأختي.. تقطع ملابسها..

لتظهر شعيرات سوداء بشعة..

وتظهر هيئتها الحقيقية..

بقدم أشبه بالثيران..

أُفلت من ذلك اللعين.. وأهرب نحو المنضدة.. أمامها مباشرة من الطرف الآخر من المنضدة.. محاولاً فك قيود أختي.. من طرف يدها اليسرى.. محاولاً نزع فكرة أكلها..

تقترب بجسد أسود اللون..

نحو قدمها.. فمها يتسع..

ويتسع..

إلى أن وصل إلى نصف متر..

ها قد حانت اللحظات الأخيرة للصرخة الأخيرة..

أُطلقت رصاصة..

من فوهة أحد ما..

صوب منتصف رأسها..

نظرات عدم تصديق أنه أتى أجلها أخيرًا..

أعقبتها رصاصة أخرى..

تقع أرضًا..

ذلك المارد المهول..

هكذا برصاصة واحدة سوف تموت أسطورة..

إنهم هم..

أبي يتقدم رجالاً..

مطلق الرصاص ضابط.. طمأنني وربت على رأسي قبل أن يأخذنا أبي في أحضانه بلهفة.. وبكى:

- وحشتوني قوي قوي.. يا حبايبي.. أنا مش هسيبكوا تاني.

قبلني بكل لهفة.. قلت بكل ثبات:

- ماتخفش، انت مخلف راجل.

بكت أسماء في حضنه..

وهو ينظر لتلك العجوز مرددًا:

- سلامٌ قولاً من رب رحيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

موجهًا حديثه إلى الضابط:

- هي دي اللي كانت بتخطف العيال الصغيرين من أهل القرية؟

- بنت الكلب.. بتعذبهم.. شايف عضم الأطفال في كل مكان.. خد ولادك وأنا هحصلك على القسم تدلي بأقوالك.. ماينفعش الأولاد تشوف الأشكال المرعبة دي.

نظرت بهلع إلى تلك الغولة.. التي افترشت الأرض.. مغمضة العين..

أين ذلك الوغد الأعرج؟ لقد اختفى من المكان..

جس الضابط بقدمه نبض الحياة في وجهها.. مشمئزًا.. لا حركة تنم عن أدنى حياة..

تمسكت بأبي مصدر الأمان الوحيد في ذلك المكان..

ناظرًا إليها في رعب..

ما هذا؟

جسدها يُعاود التشكل مرة أخرى..

******

الزمن: ١٨٣٥

أصبت بشلل رعاش..

تبًا..

لقد أتى رجل غيري إلى القصر.. يعد العدة.. يأمر هنا وهناك.

يأمر الخدم بوضع المناضد هنا للوزير..

كم هو مؤلم.. ولكنه مبرر..

أُصبت أخيرًا بمرض الخرف..

لكن ذاكرتي تطبع الأحداث بنسخة سليمة تمامًا..

علمت لحظاتها ما جرى للعزيز مثلي الأعلى..

نجح العزيز أخيرًا في جزّ تكابر الدولة العثمانية..

اضطربت الدولة العثمانية أمام زحف الجيش المصري..

وعدّت ذلك عصيانًا، وقامت للتصدي له..

واصطدم جيش عثماني..

بقيادة عثمان باشا والي حلب..

بالجيش المصري، في سهل الزرّاعة جنوبي حمص..

إلا أنه انهزم أمامه..

ثم عاد إبراهيم باشا ولد العزيز.. إلى عكا لمواصلة حصارها، فدخلها عنوة..

وأسر عبد الله باشا وأرسله إلى مصر..

كم كان ذلك ذكيًا للغاية..

عندما تابع القائد المصري زحفه باتجاه الشمال..

بعد سيطرته على عكا..

فدخل دمشق مع الأمير بشير وجيشه، بعد أن قاتلا والي المدينة..

ورحّب السكان به لأنهم كانوا أقرب إلى الرغبة في تغيير حكّامهم بفعل طغيان العثمانيين.. وكعادته انتصر.. انتصر بكل حكمة.

وإرادة.

تبًا:

- كح كح كح.

لقد عاودني المرض من جديد..

ماذا فعلن بي اللعينات.

******

الزمن: ١٩٩٠

إنها تتحول لأنثى.. ذات لون قمحاوي طبيعي..

أسرع ذلك الشرطة بغطاء يستر جسدها..

وبقعة الدم في منتصف جبهتها تنكمش..

حتى تلاشت..

فتحت عينيها الخضراوين..

ذلك المشهد أرهبني أكثر من رؤيتها وهي غولة.. تنظر لنا بغرابة شديدة.. تشعر بالبرد، تتمسك بغطاء.. لتُدخل الدفء لجسدها، قائلة في ألم:

- أنا فين؟

نظر لها الضابط بعجب ودهشة رهيبة، قائلاً:

- انتي مش عارفة انتي فين؟

أسرعت قائلاً بلهفة:

- انت هتصدقها.. دي الغولة! بتعرف تتشكل ألف شكل.. ماتصدقهاش!!!

نظر لي بكل صرامة، موجهًا حديثه مرة أخرى إلى الفتاة:

- انتي مين؟

أمسكت رأسها في ألم.. معطية أقصى لحظات الأنوثة الساحرة عبر وجه مخالف تمامًا لوجه الشمطاء:

- أنا أمنية.. إيه اللي جابني هنا؟

نظر أبي للضابط في دهشة:

- يا حضرة الظابط.. انت بتتكلم مع مين؟ دي كانت شوية وهتاكل بنتي!

كأنه لم يسمعه، قال:

- شاويش مرسي، هاتلي لبس بسرعة.

ركع بركبتيه نحوها، قائلاً بتعاطف:

- انتي مسك جن.. ولا مين حضّر عليكي سحر؟

نظرت له بنظرة حائرة كأنما لا تفهم ما يعينه.. تلك اللعينة خدعته مثلما خدعتني منذ بضعة أيام.. عبر تشكلها بهيئة طفلة.. تُدعى صابحة..

قالت له بكلمات رقيقة ملساء عبر فمها الصغير:

- مش عارفة..

أعطاها الملابس.. وقال بكل حنان:

- هديكي ضهرى تغيري.. وتيجي معايا القسم تدلي بأقوالك.. محدش هيمسك.

قلت لأبي بصوت خافت:

- دي ساحرة وسحرتله.. إوعى تسيبه يخرجها.

نظر لي أبي نظرة تعني أنه متفهم للموقف.. ثم نظر بكل اهتمام للضابط الذي أعطى الفتاة ظهره كالمسحور..

كان بالغرفة خمسة جنود مسلحين..

جوار الضابط المسحور..

كانوا متحفزين لإطلاق النار على أي فرد..

قلت بهدوء لأبي:

- أجيب ليها مية تغسل وشها.

قال أبي:

- لا.. احنا هنخرج من هنا.. ونسيب الشرطة تقوم بالواجب.

ونظر باهتمام إلى ما خلف الضابط.. فقط ظهر خيال أسود اللون..

خلفه تمامًا..

أسرعت نحو (جردل).. كان في الركن بجوار المائدة.. في تلك اللحظة..

كان الخيال يتسع..

ويتسع أكثر..

وظهر فم في قمة رأس الخيال الأسود.. تحوّل لأفعى سوداء.. وهمّت نحو التهام ذلك الضابط..

نهشته من قمه رأسه.. أخذ المسكين يتلوى..

حتى أكلت نصفه الأعلى.. مثل الحية.. التي تأكل ضفدعًا أبله..

تاركة نصفه.. الآخر، يقف على قدميه..

رشّت مياه الجردل نحو ذلك الكيان الهائل.. وابتعدت مسرعًا نحو أبي.. الذي كان يستند على حائط الجدار خلف الجنود..

صارخًا:

- ارمي ولاعتك عليها بسرعة.

أشعل أبي الولاعة.. ورماها نحو الكيان الأسود.. لو رأى عادل امام لفكر ألف مرة قبل ان يكمل ذلك المشهد بعد ذلك الحادث بسنوات من فيلم (المنسي).. عندما طلب البطل ولاعة.. وألقى بها مصطفى متولي لعادل إمام..

ما إن مس الكيان الأسود.. حتى رأينا جميعًا ذلك المارد الرهيب.. شعلة من النيران..

ملتهبة..

بالطبع ما رميته نحوها كان بنزينًا..

أتى به ذلك الأعرج ذات مرة.. وأشعل به موقد الحساء..

صراخها جعل أختي يُغشى عليها من الصدمة..

والغولة تتلوى وتعود سيرتها الأولى.. كيان أسود اللون.. ممتلئ بالشعيرات..

يحترق..

كرائحة البيض المحترق..

تنظر لي أنا دون الآخرين بنظرات الويل والوعيد..

أنا الوحيد الذي رأى عينيها الحمراوين..

التي تدلت منها خيوط الدم..

أصدرت صريرًا أخيرًا.. قبل أن تُعلن فقدان الأمل في المقاومة..

ووقعت أرضًا..

أمسك أبي يدي قائلاً بحنان:

- يلا بينا يا بني.

قبل أن يسمح للجنود بالانتشار حول ذلك الموقع..

تاركًا آخر أثر لصراخ الغولة..

******

أدليت بأقوالي أنا وأسماء بأدق التفاصيل..

وعندما أغلق الأمين ذلك الدفتر.. أخرج الجميع إلا أنا وأبي وأسماء قائلاً بكل حزم:

- ماينفعش حد يعرف بالحكاية دي.. احنا مش ناقصين قلق في القرية.. حكاية زي دي ممكن تسبب ذعر لكل الأهالي.

قلت باندفاع صارم لا يناسب سني:

- ازاي مايعرفوش؟! لازم يعرفوا طبعًا.. هتقولوا إيه للناس اللي عيالهم اتخطفوا منهم؟ لا أنا هقول!

قال الضابط بصرامة:

- ده أمن دولة يا علاء.. دي أوامر علشان نقدر نحمي مصر.

أشحت وجهي بنفور.. حتى قال أبي بهدوء:

- كلامه صح يا علاء،ماينفعش حد يعرف الحكاية دي من أهل القرية.. حكاية زي دي ممكن تسبب ذعر وخوف لكل واحد من أهل البلد.. دي لوحدها هتخلي أهل البلد يهجوا منها.. فهمت يا حبيبي؟

انتهى ذلك اليوم الطويل من الإقناع.. حتى أدركت حقيقة الأمور..

لا ينبغي لأحد أن يعلم ذلك السر..

ولا حتى ذلك الممر الأرضي أسفل تلك الأرض الزراعية..

الذي ردمته الحكومة بالجرار..

وقبل أن نعزم على الرحيل أخذتنا الجدة في أحضانها بحنان أمومي.. وربتت على كتفي قائلة:

- راجل ابن راجل بصحيح.

انتبهت في تلك اللحظة للزجاج الخلفي لسيارة أبي..

خيل لي أني رأيت صبية صغيرة..

كانت صابحة..

ببراءتها..

تتحول حدقتاها في وضح النهار إلى اللون الأبيض..

وتضحك..

والسيارة تبتعد..

تاركة آخر أثر لأمنا الغولة..

صابحة تودعني..

كانت ضحية من ضحايا أمنا الغولة..

****

- هنروح بكره الصبح.. الليلة بس هنقضيها مع ستكوا.. عايزة تقعد معاكم شوية.

نيران الغضب تجتاحني لذلك القرار المتهور.. فلم أقل ما رأيت لأبي.. يكيفنى فقط وجوده بالدار يحمينا..

ها قد أتى وقت تحضير الشاي الساخن لأبي..

واللبن الحليب الدسم.. كنا نحتسي المشروبات..

وكأن على رؤوسنا الطير جميعًا..

كنا نعلم مدى قسوة تلك التجربة التي لا تسمح بتبادل خيوط أدنى حديث..

ذلك وقت الصمت..

قطعته الجدة في فضول قائلة:

- شفت إيه يا واد في مغارة الغولة؟

بملامح جامدة قلت لها:

- حاجات أبشع من حكاياتك بكتير!

أسماء قالت في سرعة متوترة:

- ممكن تغيروا الموضوع ده؟ من فضلك يا تيتة.

أكمل أبي الحاج حديثنا وهو يرشف من كوب الشاي:

- اهدي شوية يا أسماء.. ولاحظي إننا ماقلناش لحد من أهل البلد.. ومن الواجب برضه إننا قبل ما نسيب البلد إننا نعرّف حد بنثق فيه من أهلها.

رشفت بغضب من كوب الشاي.. أنا أعلم أنها تريد إطلاق الرصاصات نحو نافوخي حتى لا أسرد..

لكن لا مفر:

- كانت حابسة عيال كتيرة في الكهف ده.. وبتاكل كل يوم هي وأبو رجل مسلوخة عيل واتنين.

قال أبي باهتمام:

- النفق اللي اتحفر ده كان محفور أيام الاحتلال الإنجليزي.. كان في الأول بيتهرب فيه السلاح.. وقبل انتهاء الحملة.. اتحول بعدها لمعتقل تعذيب.. الغريب في الموضوع ده.. إن أهل القرية كلها لما عيالهم اختفت.. ماخطرش على بالهم إنهم يدوروا على الأنفاق دي.

لم تبالِ الجدة بكلمات أبي.. فلا يعنيها ذلك في شيء.. سوى المظهر الخارجي:

- شكلها إيه يا واد؟ زي ما وصفتهالك كده؟

- هي جاتلنا الأوضة بعد النور ما قطع.. بعدها دخلتي علينا وصراخنا فزعك..

- امتى الكلام ده يا واد؟

قالت أسماء برجفة:

- انتي مش فاكرة يوم ما كان النور مقطوع؟

- أنا مش فاكرة حاجة خالص.. يوم ما كان النور مقطوع؟! أنا كنت نايمة وقافلة على نفسي.. لأ! أنا فاكرة كويس.. جايز خيالات..

نظرنا إلى بعضنا البعض بذهول.. فقلت مخفيًا موضوع تشكل تلك اللعينة بهيئة الجدة.. ودخولها إلى منزلها.

- دي سريعة جدًااااا.. ممكن تخش بين الحيطان.. و..

صراخ أسماء: يا مامي بس بقى.. بس بقى.. إهئ إهئ..

أمسكها أبي.. يطمئنها على الفراش محاولاً أن يحقنها بجرعة كبيرة من الأمان..

المعدوم..

قالت الجدة بلا مبالاة:

- وراحت فين بعدها؟ جثتها راحت فين؟

- الشرطة أخدتها تتحفظ عليها في المشرحة.. جثتها متفحمة.. دي آخر حاجة سمعتها عنها..

- أبو رجل متنيلة.. بيقولوا كسرت رجله؟

- هما مين اللي بيقولوا دول؟

هكذا كانت مبتدأ الاخبار دائمًا.. يقولون.

- مش انت يا واد بتقول إنها كسرت رجله؟

- المشكلة إنه كمان هرب.

- يا لهوي.. ومعرفوش يقبضوا عليه؟

- مع الأسف.. بس في ناس شافت بصمات رجليه وهو بيهرب.. الشرطة طمنتنا إنهم هيقبضوا عليه.. ماتخافيش.

- أخاف! طيب يا بني خش مع أبوك ناملك ساعة، قدامكم سفر بكره.

ذهبت في صمت إلى الفراش.. كالذي أصيب بالمس.. وقد أهديت الجدة تميمة حقيقية عما حدث لي في مواجهة أمنا الغولة..

سوف تسرد الأقاصيص لأطفال القرى..

محتمل أيضًا أن تعلن الرحيل إلى أراضٍ أخرى تسرد حقيقة قصصها..

سوف تُبحر في عوالم الأساطير كما تشاء..

طالما أن البنية التحتية سليمة..

نمنا على الفراش..

اللبمة السهاري موقدة حتى إشعار آخر ببدء نهار جديد..

تخايلت بآلاف الخيالات عن الوحوش..

ولم أخف..

حتى بعد ظهور بريق القطة..

تحملق فيّ عند مقدمة الفراش..

رأيتها تموت أمام عينيّ..

فلا يهم..

إنها تقتل الأطفال فقط..

الأشقياء.

******

الزمن: ٢٠١٤

- حبيبتى هي الساعة بقت كام؟

- دعااء حبيبتي؟

- انتى نمتي؟

سؤال غبي.. فقد راحت في نوم عميق على أوتار ضوء الفجر الهادئ.. ها قد طلع الصباح..

وأتمت الساعة السادسة صباحًا..

لن نذهب إلى العمل..

كلانا خسر ذلك الرهان اللعين.

وقفت أمام النافذة أراقب انسدال قطرة ندى مودعة ورقة شجيرة برقة..

انتابتني روح المرح وأنا أتذكر كيف تصلبت عروقي منذ الصغر..

إلى أن التحقت بكلية الشرطة..

أطارد متسولين ولصوصًا وقتلة عصريين..

هكذا علمت من أين أتت الزوجات بفكرة تقطيع الزوج قطعًا صغيرة في أكياس بلاستيك..

ويلقين به في إهمال في القمامة..

وذلك الرجل الجراح الذي جعل من جلد زوجته قطعة أثرية بمعرض لوحات كبير..

يبيع اللوحة بأبخس الأثمان..

يكتشف مشتريها بالمصادفة أن جلد اللوحة ما هو إلا جلد حي..

مغتصب الطفلة اللعين..

يختطف طفلة صغيرة يفرغ بها حاجته.. ويذبحها كالنعاج..

ويلقي بها في أقرب أرض زراعية..

وآلاف القصص..

أمنا الغولة جوارهم ملاك لها جناحان..

الغريب أن زوجتي الحنون لم تفزع من سرد أحاديث قتل الأطفال..

وذلك الكم الهائل من الدماء..

إنما هلعت من طريقة اقتحام أمنا الغولة الأحداث..

وطريقة تحريكها الهادئة لرأسها الشمطاء البشعة..

ومن أبو رجل مسلوخة..

الدماء..

لقد أصبحت الدماء عادية..

بل منتشرة في كل مكان..

حتى أصبح شيئًا عاديًا جدًا لزوجتي أن تستمع إلى أحاديث الدماء في هدوء..

تذكرت في تلك اللحظات (أمي)..

عندما جرح يدي دبوس..

ودماء تكاد تكون قليلة..

كم أصيبت بالفزع والهلع.. حتى كادت تهرع لإحضار سيارة الإسعاف..

تُحضر الميكروكروم.. سافلون..

افتحوا باب العمليات أيها الحقراء..

يد ابني جُرحت..

ما وصلنا إليه من فقدان الشعور الإنساني الحقيقي بشع..

قد يؤدي إلى حروب لا تنتهي..

لو فقد الإنسان قيمته..

لن يقدر سعره احد ..

رسمت ابتسامة طريفة وأنا أتذكر تلك الجملة..

أمنا الغولة طقطقي الفولة، بتعملي إيه..

حينما كنا نلعبها في الصغر..

كان ختامًا للعبة.. كانت تقول أُحضر السكاكين لأذبحكم..

لم أصل إلى تلك المرحلة معها..

قلت بهدوء ساخر:

- أمنا الغولة طقطقي الفولة، بتعملي إيه؟

توجهت إلى فراشي بمرح..

تصلبت عروقي..

عندما رأيتها تنظر لي بعيون حمراء.. جوار الفراش..

تقطر من منتصف جبهتها دماء حمراء.. مكان إطلاق الرصاصة..

تقع على زوجتي النائمة في سكون..

وفي كلتا يديها سكاكين..

تسن السكاكين..

تقول بخفوت موحش:

- بحضر السكاكين علشان أدبحكوا.

لاااااااااااااااااااااااا..

- حبيبي.. يا حبيبي مالك.. مالك؟!

فتحت عينيّ في هلع..

كنت ممددًا على الفراش..

محاولاً التقاط أنفاسي..

- إيه مالك يا حبيبي؟ خد اشرب مية.

أخذت أرتشف الماء من الحنونة زوجتي.. قالت بحنان:

- إيه مالك؟ كابوس؟

أومأت بالإيجاب، وأنا أحاول فك قيود خفية في عنقي.. وكأنني أخذت براءة من حكم الإعدام للتو..

قلت:

- هي الساعة كام؟

- الساعة تمانية ونص.

- انتي مارحتيش الشغل؟

- انت نسيت الرهان؟ احنا الاننين مارحناش يا حبيبي.

نظرت لها في حيرة.. ثم تبسمت.. وأخذتها في أحضاني قائلاً:

- حلمت بأمنا الغولة.. كانت هنا جمبك.

فزعت وتمسكت بي أكثر..

- لو خفتي مش هتروحي بكره كمان.

أطلقنا ضحكات كضحكات الأطفال الخائفين.

تلك هي المرة الأولى التي أخاف وأرتعد مثل الأطفال..

حينما أخاف على من أحب..

في تلك اللحظة أتجرد من كرامتي..

رجولتي..

حتى في أحلامي..

لن أسمح لأحد بتهديد من أحب، حتى لو كانت أمنا الغولة..

طبعت قبلة على وجهها.. قائلاً بكل حب:

- بحبك.

******

الجزء الثاني

في الصباح حدوتة أخرى..

ذهبنا كلانا والأطفال واصطحبنا الجدة العجوز.. في سبيلنا إلى زيارة أبي العزيز..

روتين عائلي أعشقه كثيرًا عندما تتواجد آخر بواقي الخير أمثال جدتي وأبي..

الجدة آخذها من أبي لطرح البركة في منزلي ثم أعيدها سالمة دون إصابات..

تنجوا من لعب أطفالي الصغار..

الذين لا يُقدّرون أبدًا قيمة تلك الجدة..

استقبلنا أبي بالأحضان، الحاج سعيد شخصيًا.. تأخذني بالأحضان كعادتها، الحاضرة الغائبة في حياتي دومًا.. أمي.. من سواها يعد الطعام الشهي.. (المسبّك).. رائحته تعلق بالأنف.. ولاتسمح لك بالتفكير سوى في الطعام..

ها قد احتسينا الشاي الساخن.. جالسين في الفراندا، الجميع باستثناء الأطفال الصغار..

قبل أن أطرح سؤالاً على أبي.. استمعنا إلى طرقات على الأبواب.. دومًا تفعل ذلك أختي العزيزة أسماء.. قلنا (فاتك نص عمرك).. (أكلة ملهاش حل)..

باجتماع أفراد العائلة، همّ أبي بسؤالنا:

- إيه حكاية الرهانات معاكم؟ ده خراب بيوت يا بني.

- أعمل إيه بقى يا بابا، الست مش راضية تصدق كلامي.

ضحك أبي قائلاً:

- معاها حق، حد يصدق الكلام اللي اتقال ده؟

تجهم وجه زوجتي بغضب، قائلة وهي توجه نظرات الغضب نحوي:

- يعني إيه؟ كنت بتشتغلني صح؟

-تااااااااااااني! ليه يا بابا كده! قولها الحقيقة.

قالت زوجتي بكل غضب، رافعة حاجبها الأيمن نحوي:

- يا ريت!

ضحك أبي وأمي.. أما الجدة فقد راحت في سبات عميق بغرفتها.. قال أبي ساخرًا:

- انت حكتلها لحد فين؟

- لحد ما حرقناها.

- آآآآآآآآه.. طيب.. بصوا بقى يا ولاد.. اللي هاحكيهولكم ده ماسمعتوش عنه، حتى لو اللي عشتوه جوه كهف الغولة، ولا حاجة من اللي هحكيه..

أثار أبي غيرة المحقق داخلي، كيف يعلم أبي أكثر من حكايتي ولم يروها لي يومًا؟

فقد أكمل بكل اهتمام، كأنما هو اجتماع في شركة عامة وليس اجتماعًا عائليًا:

- ابني حكالك على نهاية الغولة.. ومحكاش ولا عرف نهاية أبو رجل مسلوخة، ولا...

قاطعته أمي بنوبات ضحك هستيرية.. ضحكنا دون إرادة لنا في هذا..

أخذت بعض الوقت كي تستوعب نظرات أبي الصارمة، قائلاً:

- ها؟ خلصتي؟

قالت أمي بكل ود ضاحك:

- أصلك بتقول أمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة.. أنا فاكراك بتهزر.

- أنا عمري هزرت لما بتكلم جد؟

انت طول عمرك بتعمل كده.

ضحكنا جميعًا بعدها، بما فينا أبي نفسه.. قال أبي بكل اهتمام:

- أمك ماحكتلهاش أي حاجة.. وده كان مهم.. الغولة نفسها كانت انتحرت لوحدها، كان اتحرق دمها لو شافت أمك بتضحك عليها.

ضحكنا أجمعين..

وأسلم أبي مقاليد الراوي هنا..

أبي يبلغ من العمر التاسعة والخمسين.. تذكروا ذلك جيدًا.

******

ذلك كان يومًا طويلاً حقًا.. تجشمنا فيه عناء البحث عن ولدي علاء..

وانتهى ذلك الصراع بذكاء شديد من ولدي عندما قمنا بحرق تلك الملعونة.. أودعت الأولاد بمنزلي، حيث كنا نعيش داخل عيني زوجتي الحبيبة..

هنالك صفقة لا بد وأن تتم بأي شكل من الأشكال..

أرض تبلغ ستين فدانًا وبثمن بخس.. وذلك يهون عند أولادي، تبًا لتلك الصفقات كلها..

بعد ثلاثة أسابيع ذهبت مجددًا إلى البلدة..

مودعًا طفليّ الصغيرين..

كنت مخطئًا عندما أتيت بهما إلى تلك البلدة.. أدرك جيدًا أنهما ولدا كي ينموا داخل بلدة أكثر تحضرًا من تلك.. بلدتي العزيزة. حيث كنا صغارًا أيضًا.. نلهوا ونلعب ونرتعد من حكايات تعجز الأنامل عن تحملها..

هنالك أقصوصة سمعتها من (مصيلحى).. صديقي الفلاح، عن فتاة تحولت إلى وحش مرعب..

بسبب رجل..

تأتي لتقلع قلوب جميع الرجال من صدورهم، وأسطورة أخرى عن أبي رحمه الله، (جد) الأولاد.. كان ممسكًا بكتيب كبير أثناء سيره إلى حديقة واسعة بحي حدائق القبة، حينها كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً.. حيث لم يتواجد بشري مطلقًا سواه..

سار خلفه شيء ما..

ربما شخص..

استدار ليرى ظلّ رجل مهيب.. ظهر فجأة أمام ضوء الليل.. وبقلب ثابت متحجر.. سار ولم يبالِ.. وسار خلفه الظل.. وقف أبي أمام المنزل في صمت دون أن يلتفت خلفه..

أمسك مفتاحًا كبيرًا دسه في فتحة الكالون...اشتم رائحة احتراق لحم حي خلفه..

يقف خلفه تمامًا ذلك المارد، همّ أبي بتلاوة آيات قرآنية.. على أثارها اختفى ذلك الظلّ، واكتشف حينها أن ذلك المارد لم يكن سوى خادم لذلك الكتيب الذي قام باستعارته من المكتبة، وحكايات أخرى من حكايات ألف ليلة وليلة، كم كنت أقول حينها أن الكبار يصنعون لنا أقاصيص من خيوط وهمية.. لكنها ممتعة.. إلى أن وصلنا إلى حكاية كان بطلها ولدي..

ولدي!!

عجز لساني عن وصف مشهد احتراق الغولة..

كيف تحمّل ولداي الصغيران رؤية المزيد من الدماء؟!

حمدًا لله أن أسماء أتت متأخرة ولم تشاهد ما حدث لعلاء الرجل.. رغم أن عمره لم يتجاوز وقتها الاثني عشر ربيعًا..

******

ذهبت إلى منزل أمي في دارها الصغير..

ارتميت على فراشي الصغير..

ونمت لساعات طويلة.. رأيت في ذلك اليوم رؤيا عن شبح فتاة حسناء.. جميلة.. تشبه إلى حد كبير تلك الحسناء التي تحولت إليها الغولة عندما أطلق عليها ذلك الضابط نيران مسدسه..

أخبرني ولدي على قدرتها الفائقة على التحول..

لكنني أظن أنها لم تصبح غولة في يوم وليلة، مصيلحي هو الحل إذن، ذهبت كي أجالسه على ذلك المقهى لنحستي أكواب الشاي وحجر المعسل، وطرحت سؤالي.. وللعلم أتذكر جيدًا أنه لابد ألا يعلم أحد من أهل البلدة بما حدث داخل نفق الإنجليز اللعين.. سحبت من المبسم كمية لا بأس بها من الدخان قائلاً:

- فاكر القصة اللي حاكتلي عنها زمااان، ييجي من عشرين سنة تقريبًا، عن البنت اللي اتحولت وحش؟

قهقه ضاحكًا وقال:

- يااه يا سعيد، انت لسه فاكر؟

- هو حكاياتك تتنسي يا مصيلحي؟

- أهو كلام لا بيودي ولا يجيب.. اهو من الساعة الى قالوا اللحمة بقت بستين قرش، و التجار خدوها علينا فرصة .. حتى التموين وسعر الزيت والرز بيقولوا الايام الى جاية هتبقى قحط ؟ ..

- يا راجل؟

- أيوة أمال.. دي الجماعة مطلعة عين اللي جابوني من ساعتها.. قال إيه يا سيدي مش هاجيب ليها لحمة في الموسم ده.

- معاها حق يا مصيلحي، انت بخير حبتين.. يا راجل أما بنعمة ربك فحدث.

- تعرف من ايام زمان ايام ما السادات قال إيه بيعمل إصلاحات والفساد مالي البلد.وكل الناس دلوقتى بتقول فين أيامك يا عبد الناصر.. كان الواحد مبسوط وهادي وواخد حقه وزيادة.. أيام!.. قبل ما ييجى السادات .. ويديها للى بعده ..الى خربها وقعد على تلها .

- الناس عمرها ماعجبها حالها يا مصيلحي.. الناس كل يوم بتعاني، مش جديد.

- أيوة بس يا سعيد يا خويا الأسعار بتزيد كل ليلة ومحدش عارف أولها من آخرها.

ثم قام بسحب نفس من الجوزة التي بالجوار.. مرت فترة صمت طويلة نتأمل فيها القهوجي الذي قام برص أحجار ساخنة لنا، قمت بسؤاله مرة أخرى:

- أيوة بس انت ماقلتليش برضه.. فاكر قصة البنت دي؟

- بنت مين؟

- يييييه، انت مالك النهارده يا مصيلحي؟ فوق معايا شوية.

- أيوة أيوة.. عايز تعرف إيه؟!! مالك مهتم بالموضوع ده ليه كده يا جدع؟

- أصل جدة الأولاد كانت حكتلي عن حكاية مشابهة.. لحكايتك.. عايزك تحكيلي بالتفصيل.

- اللهم احفظنا ياجدع، فال الله ولا فالك.. حكاية إيه وكلام فاضي إيه، ده كله كلام عيالي.

- يعني الحكاية اللي حكتهالي ماكنتش صح؟

- تخاريف.

ثم قهقه ضاحكًا.

******

لم أنم مطلقًا منذ حديثي مع ذلك المصيلحي.. وددت لو دككت عنقه أو علقته من قفاه كي يخبرني أي شيء عن تلك التخاريف..

ذهبت إلى قسم الشرطة..

ألقيت التحية على ضابط الحالة الذي أعرفه، كان صديقًا لي في وقت ما فيما مضى.. متسائلاً عن اسم أحد العساكر والأمناء الذين كانوا في حادث المغارة.. قال لي الأمين بأسف:

- يا أستاذ سعيد، فيه مشكلة حصلت من أسبوع فات.

عيناه تحمل الكثير من الهلع وهو يتلفت حوله بتوتر، قائلاً بخفوت:

- فيه العساكر اللي قلت عليهم، اختفوا وأهاليهم مقدمة بلاغات علشانهم.

اتسعت رقعة عيني متسائلاً:

- ازاي اللي حصل ده؟! اتخطفوا؟

- وماحدش يعرف عهنم حاجة.

- والأمناء؟

- والأمناء برضه.. الدنيا مقلوبة في الداخلية.. ده كمان المخابرات دخلت في الموضوع يا أستاذ سعيد.

- المخابرات؟! كمان؟!

- أمن دولة والمخابرات الحربية، الاتنين سوا.. والداخلية مكتمة على الموضوع.

- وأهل الناس دول عملوا إيه؟

- دول ليهم ربنا والله يا أستاذ سعيد.. ديك النهار قعدت أم واحد من العساكر تعيط وتولول، قلبي اتقطع عليها.. وعدتها إننا هنجيب حقها.

في ذلك التوقيت من الزمن كانت الشرطة في خدمة الشعب.. وكان الناس منهم يموتون من أجل الدفاع عن الحق.. أرى تأثرًا واضحًا في ملامحه حينما قلت مواسيًا:

- طب ولو مارجعوش لبيوتهم؟ أكيد اللي خاطف هيطلب فدية مثلاً؟

- ماحدش طلب أي حاجة، والغريب برضه كل واحد اتخطف في ساعة متأخرة من الليل، بصراحة الوضع يقلق.

وضعت يدي على ذقني أفكر مليًا، ثم قلت بهدوء وحذر دون أن أنظر إليه:

- والحفرة بتاعة الغولة؟

- لا أبوس إيدك يا أستاذ سعيد، اللواء منبه عليا ماجبش سيرة، انت عايز تضرني؟

- لا مش القصد.. بس ده بيني وبينك.. أوعدك مش هيخرج لأي شخص، أنا معاهد الداخلية على كده.

اقترب بوجهه خشية أن يستمع إلينا أحد، قائلاً:

- الحفرة اتردمت من أول الممر لآخره.

- طيب مش جايز يكون في حفرة تانية وتالتة؟

- ماعرفش يا أستاذ سعيد بصراحة.. أنا كل اللي أعرفه قولتهولك رغم إن ده ممكن يضرني في شغلي.. بس علشان انت غالي عندي من زمان.

- عارف.. مش هطول عليك.. بس أنا كنت حابب أخدم.

- اطمن احنا قايمين بالواجب.. ده واجبنا، ولا انت ناسي؟

لا لم أنسَ.. أنهم قاموا باختطاف كل من كان داخل مغارة الغولة.. ومن بينهم أبناء رجال الشرطة.

الشرطة تبحث عن الشرطة.

******

- الحالة يا مه ماتطمنش.

جالسًا على إحدى قدميها المربعتين أسرد ما حدث لي طوال اليوم.. قالت بحنان وهي تربت على شعري:

- منا قلتلك يا بني من الأول انت اللي مسمعتش الكلام!

- يا رتني كنت سمعت كلامك.. ماكنش حصل اللي حصل.. أهو دلوقتي بقى في رقبتنا خمس عساكر واتنين أمناء.

- هما مش قالولك هيتصرفوا؟ يبقى هيتصرفوا، ده شغلهم يا بني، ماتحملش نفسك فوق طاقتها.

- أيوة، بس الناس دول ذنبهم في رقبتي.. أنا مش هسكت.
- يا بني اسعى لرزقك ورزق عيالك وخلص موضوع الأرض ده، وبعديها يحلها من عنده.

- ونعم بالله.

- خش نام والصباح رباح.

قبلت يدها وذهبت إلى الفراش أنعم بهدوء عقلي..

لم تمر بضع دقائق حتى استمعت لصوت ينادي ويقول بصوت حساس رقيق: ساااااااعيييييييد..

صمت مطبق بالغرفة.. يقطع السكون صوت فتاة بريئة تقول:

سااااااااعيييييد..

شغف الكون اجتمع بقدميّ التي انتصبت واقفة، فتحت النافذة.. أرى الغيط الواسع يحاوره ضوء القمر الخافت على استحياء.. لا يوجد شيء..

سااااااااعيييد..

تلك هي المرة الأولى التي أقفز فيها من تلك النافذة وأخطو بشغف غريب نحو الأغصان المتشابكة..

محاولاً الاقتراب من صاحبة الصوت..

دقات قلبي تتصاعد رويدًا رويدًا..

أزيح سواتر النباتات من حولي..

أريد الوصول بأي شكل إلى صاحبة الصوت..

توهج وجهي..

بل احتقن..

عندما رأيت جثة مصلوبة..

موضوعة مكان خيال المآتة..

لأحد العساكر الغلابة.. مكان صدره مشقوق بقسوة.. منتزع منه القلب.. المسكين.. ما العمل؟

تناسيت ذلك الصوت مؤقتًا..

اتجهت بكل عنف نحو قسم الشرطة..

ما إن وجدني امين الشرطة حتى هتف:

- مالك يا سعيد أفندي؟ بتجري من مين؟

محاولاً التقاط أنفاسي قلت:

- في واحد من العساكر مصلوب هناك.

- يا خبر مأندل!

هرع إلى الداخل ولاحقته، وجدت الضابط المعرفة.. قفز من مقعده:

- في إيه يا أستاذ سعيد؟

أسرع الأمين يجاوب بالنيابة عني قائلاً:

- بيقول لقى واحد من العساكر مصلوب يا فندم في المزارع.

قلت بلهفة:

- المنظر بشع.. صدره مفتوح ومتاخد منه القلب.

انتصب حاجباه لأعلى، أسرع يحمل الهاتف الكبير، يدير قرصه الدائري قائلاً:

- معاك المقدم خالد نبيل.. جهز البوكس بسرعة.

أغلق الهاتف وأسرع يحمل بلازير العمل الرسمي.. قائلاً لي باحترام :

- تعال معايا.

أسرعنا الخطا خارج القسم..

ما إن اقتربنا من الأبواب.. حتى صرخ أحد الجنود من الخارج قائلاً:

- ضرب ناااااااااااااار.. في ضررب نار.. اقفلوووووا باب القسم.. احموا الناااااااس.

أسرع ثلاثة عساكر يغلقون علينا أبواب القسم.

الذهول مرتسم على ملامحنا.. أسرع نحونا أحد العساكر الصغار يقول محاولاً التقاط أنفاسه:

- العساكر اللي كانوا مخطوفين بيضربوا علينا نار.

أمسكه الضابط من ياقة قميصه بعنف قائلاً بصرامة:

- ازاي؟! انت مجنون!

- والله يا بيه ما بكدب.. عثمان شافهم جايين بشكل دائري وماسكين المدافع وبيضربوا نار ناحية القسم..

تركه الضابط واتجه بكل لهفة نحو أقرب نافذة.. واقتربنا أنا والأمين خلفه نشاهد ما يحدث بالخارج..

ذلك المشهد لن ينمحي من ذاكرتي إلى اليوم..

أحد العساكر قمحي البشرة متجهم الملامح يحمل شاربًا قصيرًا.. حدقتاه بيضاوان تمامًا..

يبدو في ريعان العشرينات من عمره..

يظهر بشكل جريء جوار القسم، ويطلق الرصاص بشكل عشوائي..

قال الضابط بصرامة:

- إيه الجنااان ده!!

ازدادت طلقات النار من كل صوب واتجاه.. كُسر زجاج النافذة.. واستقرت رصاصة من الخراج في منتصف جبهة الضابط المعرفة..

انتابه الوجوم وسقط أرضًا..

أسرعنا نحوه..

ينظر لي بعينين جامدتين..

أسدلت ستار الحياة بيدي.. أغلقت عينيه.. مرددًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

التفّ حولنا المزيد من أصاحب الزي الأسود.. في حالة من الهرج والمرج.. مرددين آيات من القرآن الكريم.. نظرت إلى ذلك الأمين الذي استقبلني منذ البداية.. يقول في خوف:

- ليه.. ليييييه يا ظلمة.. ليه؟! لا!

قاومت دمعة حارة.. هكذا مات.. ما ذنب ذلك المسكين؟

تسمرت قدماي بموضعهما.. وقد أصابتني حالة من الخوف..

كيف أنتهي وأترك كل ما أحب..

أمي بالدار في حاجة لي..

أبنائي الصغار..

هكذا تصبح نهايتي؟

ليس الآن..

ذهبت إلى الدرج وقد قاومت دمعة حارة لذلك الزميل..

الشريف..

متجهًا إلى سطح البناية.. كي أرى مطلقي الرصاص.. وجدت على الأسطح ست جنود يطلقون النيران على الآخرين..

وواحد قد سقط هناك بالحقل..

يا إله العالمين...

مطلقو الرصاصات نحو القسم، هؤلاء العساكر تُشع عيونهم بوميض أبيض..

تظهر من الحقل..

آتية من بعيد..

فتاة تحمل هالة بيضاء..

كما وصفها لي ولدي علاء..

إنها هي، النداهة..

قد أشارت للجميع بخفض السلاح... للجنود الذين أصبحوا جنودها..

******

قبل الخوض في باقي الأحداث.. أذكركم بشيء هام..

تلك الفترة كانت فترة عصيبة حقًا..

فتحت بالوعة الفساد وأفرغت ما بجوفها من جواسيس..

منافقين..

أفاقين..

حملات إعلامية مضللة عن إصابة مستشفيات مصر بوباء مجهول..

لإفراغ أمعائها من المرضى والمصابين..

لإفساح مساحة لا بأس بها لجنود الحرب.. الذين اجتهدوا في حرب أكتوبر..

قبلها لم يكن أحد يطيق الرئيس السادات مطلقًا..

كانوا متشبعين بحب ناصر.. حتى لم يسمحوا مطلقًا لأحد بتولي ذلك المنصب المقدس..

كان أحدهم يود نبش جثمان ناصر من قبره ووضعه مجددًا في منصبه..

يجب أن يحكم مصر ناصر من جديد..

مهما كلف الثمن..

كان الاحتلال مستقرًا في كل أنحاء الوطن..

في قلب كل مواطن..

كان هنالك احتلال فكري بالنقص.. بضعف القدرات.. هشاشة الفكر..

كان احتلال القيادة يحتلنا..

كنا نريد رئيسًا يقود قطارًا دون قضبان..

إنه السوبرمان الخارق الذي بلمسته السحرية يتحول الحجر لذهب..

كان هذا ما يريده المواطن المصري حينها..

عندما عبرنا خط بارليف..

ورفعنا أعلام النصر..

أصبح السادات رئيسًا مصريًا خالصًا..

توغل إلى القلوب برقة.. ودقة.. وحذر شديد.. بوجه صارم.. مكابر.. وجهه يحمل قسوة الكون..

وبضحكته بشاشة لا يوجد لها مثيل..

وعبر تلك الحرب..

دخل القلوب واستقر على عرشها إلى الأبد..

كانت هناك خيوط لم تنفك بعد..

هل تخلصت مصر من الاحتلال الإنجليزي والألباني أم...؟

كنت أتخلص من هلاوس تجاورني من آن لآخر وأنا قابع داخل قسم الشرطة حبيسًا..

جلست القرفصاء..

جوار حائط يقترب من زنزانة السجناء.. يجلس جانبي الجنود يحملون المدافع..

كان يقبع بتلك الزنزانة أحد الرجال المحترمين.. يرتدي منظارًا طبيًا.. يعدلها من آن لآخر..

توجهت بسؤال أحد العساكر بحب استطلاع:

- الراجل ده شكله محترم! إيه اللي جابه هنا؟

أجاب العسكري بصوت خافت:

- ده مش مسجون.. ده الدكتور بتاع الكفر.. ندهته النداهة.. أهله حبسوه في البيت، كسّر ودغدغ في البيت.. لحد ما جابوه هنا.. خافوا منه ليموّت حد.. جابوه هنا علشان يحافظوا عليه.

- غريبة دي.. هو مش متهم، تجيبوه ازاي؟

- يا فندي الراجل اللي تندهله النداهة عمره ما بيرجع لطبيعته تاني.. بيبقى في حكم الميت..

بس أهل القرية بيحبوه.. بيقولوا عليه طيب.. والبيه الظابط كان بيحبه.. هو اللي جابه هنا.

لا أزال مندهشًا لتلك الفعلة الغريبة..

كيف؟!

قاطعني ذلك العسكري:

- يا فندي كان هيعدله يومين بالكتير قوي لحد ما تأثير النداهة يروح.. وبعدها يروح بيتهم.

- يعني لو أنا كلمته.. هيجاوبني عادي ولا هيتكلم زي المجانين؟

- اعمل اللي يريحك يا بيه.. احنا كلنا هنا مساجين.. لحد ما الضرب اللي بره يهمد.

وقفت منتصبًا.. اتجهت نحو الزنزانة.. للمسجون الوحيد.. يبدو طبيعيًا.. لا يحمل معالم الجنون.. قلت بهدوء:

- احم، ازيك يا فندي؟ مش حضرتك الدكتور بتاع الكفر.

أجاب بكل احترام وود كأننا أصدقاء قدامى:

- أهلاً بيك.

قلت متسائلاً:

- انت عارف الواقعة اللي وقعنا فيها؟ مش لاقي حد أتكلم معاه.

- اتفضل يا فندم.

محترم للغاية.. وهذا حقًا ملفت للانتباه.. قلت:

- انت إيه اللي جابك هنا؟ شكلك محترم يعني..

قاطعني:

- مش عايزني أتكلم.

- هما مين دول؟

نظر إلى الجميع القابعين أرضًا من العساكر والضباط.. مكملاً:

- عايزني أسكت وأخرس، وده اللي مستحيل أعمله.

- طيب هو انتى مخبي إيه؟ وايه السر اللي مخبيه.

ابتسم في سخرية:

- فاكرين لما أسكت الناس مش هتعرف.

- بصراحة يا حضرت انت حيرتني.. هو مش ندهتلك النداهة؟! ده السر؟

أطلق ضحكات طويلة.. وكأنني أطلقت نكتة جديدة قائلاً:

- ده اللي قالهولك العسكري؟ يا سيدي ناس بتكدب على ناس.. وناس بتخبي على ناس.. وناس بتموت من ناس.

- وضّح كلامك.. احنا هنا كلنا معرضين إننا نموت في أي وقت.. لو عندك سر قوله.. لو ماعندكش ماتزودهاش الله لا يسيأك.

أطلق زفرة حارة.. مقتربًا من الزنزانة الحديدية نحوي مباشرة:

- مش انت اللي ابنك كان في مغارة الغولة؟

اندهشت لقوله وتركت رأسي يومئ بالإيجاب.. أكمل الرجل:

- وأنا أبو البنتين اللي كانو مخطوفين.. بنات دكتور الكفر مخطوفين يا حضرت! رحت القسم قالوا هندورلك عليهم.. شهرين لف ودوران على كعوب رجلينا لما خلاص.. الستات لبست لسود!

وقلنا إن البنات مش راجعة.. ورضينا.. جالنا خبر من أمين شرطة بيقول إنهم لقيوا البنات..

رحنا القسم زي المجانين وفرحة ماتتوصفش لما شفنا البنات.. حالتهم كانت كرب..

اتمصوا، بقوا لحم على عضم يا فندي.. بنتي الصغيرة شعرها متمزع بوحشية.. حكولي شافوا إيه.. البنتين شافوا حاجات لو احنا مكناش استحملنا.

- ابني علاء حكالي.

- ابنك ده جدع صحيح.. حكولي على اللي عمله.. وأنا قلت مستحيل أسكت.. رحت العيادة وقلت لكل الناس عن أبو رجل المعيز والنداهة، آخر اتنين.. هربوا.

- بس ابني حكالي عن أبو رجل مسلوخة واللي عمله في الأولاد الصغيرين.

- يا فندي النداهة دي أقذر بكتير من الغولة.. دي عندها قدرة تتحول لهوا.. ولجسد مادي..

بتخطف الرجالة من حضن مراتهم.. وتدخل إديها جوا صدورهم وتشيل القلب من مكانه..

وفي الآخر تسيبه مرمي في أي حتة.. أنا شفت حالة زي كده ييجي من خمس سنين.. وكتبنا في التقرير حادثة عربية.

- أيوة بس انت ماقلتليش انت ليه اتقبض عليك.

- علشان لما البنات حكولي وقلت لأهل الكفر من العيانين.. الخبر جه على القسم.. بلغوني إني لو ماسكتش هياخدوني.. طبعًا ماسكتش.. كنت كل ما أشوف حد أقوله على حكاية بناتي..

- ده طبعًا غلط.. المفروض تحافظ على سرية الموضوع علشان أمن الـ...

- أمن مين.. لو فضلنا نخبي كل حاجة عن الناس.. وإنهم عايشين في أمان نبقى بنكدب عليهم يا حضرت.. والساكت عن الحق شيطان أخرس.. وأنا مش ممكن أسكت.. أنا بنشرالوعي.. ده في حد ذاته حفاظ على وعي وإدراك الناس.. مسكوني وحطوني هنا وقالوا عليا إن النداهة نداهتلي.. وطبعًا ده كذب.

انصعت لقوله..

أرى كلماته مقنعة بشكل كبير.. ذكرني بتلك الأيام الماضية قبيل الحرب..

وتلك الحملات الإعلامية بالصمت المطبق لانتشار الجواسيس..

ولأن العدو له عيون بكل مكان..

على القهوة.. عبر الهاتف.. في جلسات السمر..

الجميع التزم الصمت..

لا أحد ينشر أخبارًا عن البلد..

تعتيم..

حتى أصبح ذلك نمط حياة..

هنالك ما يقال وهنالك ما هو مستحيل أن يقال..

قلت بهدوء للطبيب:

- النداهة ندهتلي.

أثرت شغفه، فقال بلهفة:

- بجد؟ حصلك إيه؟ سحرتلك زي ما بيقولوا؟

- ولا حاجة من الكلام اللي سمعته عنها صحيح.. مجرد صوت جذاب.. بس المرة دي لما ندهتلي علشان ترشدني لمكان قتل واحد من العساكر.

- آآآآآآآآه، ده اللي جابك هنا؟!

- بالظبط.

- بناتي الاتنين قالوا إن النداهة بتقعد بليل تصوت وتندب عمال على بطال.. زي ما تكون بتعاني من وجع في جسمها.. وبتقعد ترجى الغولة كل ليلة.. والغولة متديهاش أدنى اهتمام..

يبجي أبو رجل المعيز.. تسكت وتنسحب من المكان.. مستحيل تتواجد في مكان واحد يجمعها بأبو رجل مسلوخة.. بيقولوا بتروح تنده على شخص تموته وتنهش قلبه.. ده اللي بيشفي غليلها.. وبيمحي وجعها.. انت عارف نص سكان البلد طفشوا منها.. ولسه بيقولوا إن الناس اللي بتختفي دول مفقودين.

- المرة دي مختلفه يا دكتور.. لما ندهتلي ماكنش علشان تاكل قلبي.. لا! دي كانت مجرد بداية.

- بداية لإيه؟

- أنا هقولك.. بس الأول نبص بصة بره.. نشوف الوضع إيه.

اتجهت بحذر نحو النافذة المكسورة مستندًا بظهري للحائط.. جميع الجنود يقفون صفًا بشكل دائري..

كتماثيل حجرية..

بالمنتصف كانت النداهة تنظر لي..

وكأنما تنتظر ذلك المشهد بفارغ الصبر.. أو تنتظر إطلالتي.

******

- يا جماعة أنا معايا الحل.

قالها أحد الضباط بحماس شديد موجه إلينا جميعًا.. أكمل:

- اسمعوني كلكم كويس.. غلطة الشاطر بألف ومش لازم نغلط.. نتحلى بروح نصر أكتوبر..

احنا هنتجمع خمس صفوف.. أنا في المقدمة.. الصف الثاني برضه من خمس صفوف.. هيكمل من ورانا.. لو جرالنا حاجة يكملوا المسيرة.. ومحدش يضرب نار غير لما أدي الإشارة، مفهوم؟ أنا عارف إن العساكر اللي بره زمايلكم.. بس أديكم شفتوا قد إيه هما خطر. مش هنسأل عن الأسباب اللي خلتهم كده.. كل اللي هنعمله إننا هندافع عن أرواحنا بكل عزم وقوة.. مفهوم؟

أومأ الجميع بحسم.

وقفوا صفوفًا..

صفان بالأمام وصفان بالخلف.. قال الضابط بصرامة:

- افتحوا الأبواب.

هرع اثنان من العساكر لفتح الأبواب.. تلبية لنداء الضابط.. تقدموا الصفوف بحذر..

راقبت المشهد من الداخل بكل رهبة..

أصبح لا يفصلهم عن الجنود المسحورة إلا متران كاملان.. قال الضابط بصرامة:

- بأمركم بالاستسلام.. ومحدش هيضرب عليكم نار.. سلموا سلاحكم بهدوء.

ألمح عيني الضابط تصابان بخوف وهلع.. عندما رأى النداهة تخطوا إليه كالسحابة العابرة..

تسير في الهواء.. عكس ما تقوله الطبيعة مطلقًا..

اقتربت منهم..

بالتحديد نحو الضابط، حتى وصلت إلى وجهه تقريبًا، ورددت بخفوت:

- استر يا رب.. استرها من عندك يا رب.

قال الطبيب السجين:

- خير؟ شايف إيه؟ طمني بالله عليك.

- النداهة بتقرب من الظابط.. يا خبر مأندل، عنيها بتلمع بلون أبيض.. عيون الظابط بتتحول لأبيض.

ردد الطبيب:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. احمينا يا رب العالمين.. انت وحدك العالم بالحال.

رأيت الصفوف كلها تتراجع.. وتتجه نحونا..

تجاه القسم..

أمسكوا بنادقهم الآلية.. على استعداد لشيء ما لا أعرفه.

******

تظهر في الليالي المظلمة..

تظهر في الظلام..

تظهر لشخص واحد..

تهتف باسمه..

تقوم بسحره..

لو ظهر للناس يعيش طيلة عمره مصابًا بمس من الجنون.. حتى يموت..

إنما أن تأتي وتجمع رجال الشرطة حولها.. رجال الشرطة؟!

لقد هتفت باسمي..

هنالك بالتأكيد خطأ.. ما!

خطأ زادها قوة، أو العكس..

وكأن فعلتها تلك بكل تلك الجرأة..

يُبشر بأن تلك فعلتها الأخيرة..

تقدم رجال الشرطة مصوبين سلاحهم نحو قسم الشرطة..

رصاصات تخترق الأدراج.. وصورة الرئيس.. تُفجر زجاجة ماء.. قلت صارخًا بالطبيب:

- حاااسب الرصاااااااص وااااااااطي نام على الأرض!

سقطت مسجيًا على الأرض، أتلو آيات قرآنية.. متحاشيًا طرقعات من كل صوب واتجاه..

تقدم رجال الشرطة.. أستمع إلى أقدامهم آتية في آلية..

بضع دقائق وأكون في عداد الموتى..

يتقدمون..

يقتربون من أبواب القسم..

ثم..

توقف الموقف..

وددت لو كان حلمًا.. مهما طال بي سوف أفيق منه عاجلاً أم آجلاً..

أحنيت رأسي بحذر أشاهد ماذا يحدث بالخارج..

الجميع اختفوا..

حتى النداهة..

وقفت بالكامل أمام النافذة..

هناك شيء ما يحدث خلفي..

رائحة نتنة..

تلفح ظهري في سخونة..

أدرت رأسي بحذر..

انتصب شعر رأسي..

جواري قرابة السنتيمترات..

كان ذلك الغول الملقب بأبو رجل مسلوخة..

بفم متسع وأنيابه يتساقط منها الزبد..

ينظر لي بكل جنون، وكأنها المرة الأولى التي يشاهد فيها بني آدم..

يتأملني..

يشتم رائحتي...

مقتربًا من صدري..

انتابتني حالة من الجنون.. وأنا ألكمه في فمه.. يتناثر رذاذ فمه نحو الطبيب.. الذي قبع في مكانه.. وقد غطى زبد أبو رجل مسلوخة الجانب الأيمن من منظاره الطبي..

لم يصدر شيء..

وقد آلم يدي كثيرًا..

من تلك الضربة..

اكتشتفت مدى قوة اللعين..

لكمني بقوة في صدري..

طرت لمسافة لا أعلمها.. وقد طار رأسي ليصطدم بسن حرف مكتب الضابط..

حالة من الإغماء..

******

- فوق.. يا أستاذ... يا فندي..

عندما فتحت عينيّ وجدت الطبيب.. في حالة هلع.. وقد غطى الحوائط الأربعة لتلك الغرفة.. زي العسكري.. مجموعة من الضباط والعساكر.. عيونهم بيضاء تمامًا دون حدقة..

وقفوا وقفة عسكرية..

منتظرين بالتأكيد أمرًا من النداهة بالقتل المباشر.. أمسكت رأسي وأنا أقوم بألم:

- هو راح فين؟

- اختفى وجم بداله دول.

مشيرًا برأسه للعساكر المتراصة..

أمسكت يده.. صرخت:

- آآآآآآآه.. قفصي الصدري.

- انت بتعمل إيه؟ قفصك الصدري مشروخ.. انت محتاج لعملية.. دي معجزة إنك فوقت.

قلت بألم:

- كده كده ميت يا دكتور.

التفت يدي حول عنقه من الخلف.. وهو يساعدني على الخروج.

- هما جرالهم إيه؟

- علمي علمك.. أنا لاقيت أبو رجل مسلوخة بيجري بره القسم، بعدين لاقيت مفتاح الزنزانة طار من الدرج فتحت الزنزانة.. ومرة واحدة لاقيت العساكر والأمناء جم وترصصوا الرصة دي، قلت رحت فطيس.

جررنا أقدامنا جرًا خارج القسم..

في صمت وحذر..

الصمت خيم على أرجاء القرية..

وجدنا من يجري في سرعة نحونا.. مخترقًا الحشائش الخضراء.. إنه ذلك الوغد..

أبو رجل مسلوخة..

فاتحًا فمه على مصراعيه..

الخلاص..

وجدنا طوبة كبيرة.. تُقذف من بعيد نحوه..

أكلت النصف السفلي من فمه بشكل مخيف..

اقتلعته..

وجدنا أهالي البلد الأشداء..

يهرعون لنجدتنا..

أبو رجل مسلوخة يُطلق عواءً يفوق عواء ألف ذئب وذئب..

والأهالي يمطرونه بوابل من الطوب كبير الحجم..

قال الطبيب بفرحة:

- يا فرج الله.. الحمد لله.. الحمد لله يا رب.

سقط يتلوى ذلك الوغد..

تقدم الرجال بالنبوت الكبير..

يضربونه ويركلونه بالأقدام..

لست أدري لماذا (صعب) عليّ.. الجزاء من جنس العمل..

استمعنا بعدها لصراخ آتٍ من بعيد..

النداهة تهرع لنجدة ذلك الحيوان.. من براثن هؤلاء القوم..

اقتربت بعيون تحمل وميضًا أحمر اللون.. لأقرب الرجال.. تغرس يدها في صدره.. وتُلقي به بعيدًا.. صرخت هاتفًا:

- ابعدوووا ابعدوووا..

طاشت كلماتي وسط صراخ الرجال المفزوعين..

الذين طارت قلوبهم.. وسقط قلب أحدهم جواري.. ينبض..

ولا يزال ينبض..

نظرت لها وهي تميل على ذلك الحيوان.. بعدما سقط حولها أكثر من دستة رجال أشداء..

كانت حنونًا.. الحيوان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وهي تصرخ برقة..

كيف لا أعلم؟!

ها قد أتى صراخ آخر..

صراخ نساء القرية..

حاملات شعلات نارية..

يرمين بها النداهة..

تنطلق لنزع قلوبهن.. هن الأخريات..

تقذف إحدى النساء بدلو ماء..

يغطي جسدها المندفع بشراسة..

تتوقف.. متسعة العين...

إنها تحترق.. دون إلقاء كبريت.. من أسفلها لأعلاها..

تصراخ إحدى النساء وهي تُمسك بنبوت أحد الرجال:

- موّتيهم يا بنت الكلب؟ طب خدي.

تضربها بالنبوت..

يخترق عظامها.. بشكل بشع..

تصرخ وجلدها يتقطع..

تحاول أن تتمسك برجلها الذي يهرم ويقع أرضًا.. يحترق كورقة سوداء..

تصرخ كصرخة قطة محترقة..

أنظر إلى أبو رجل مسلوخة..

تتحول عيناه لهيئة بشرية..

يعود الرجل كما كان بشريًا، دون الفك السفلي الذي تآكل..

يصرخ: بااااااااااااااااا... اااااااااااااااااااااااا..

ما هذا المشهد الذي لا يصلح سوى في أفلام الرومانسية البحتة؟

عندما يشاهد البطل موت الحبيبة أمامه ولا يستطع القيام بأدنى شيء..

يشعر بالعذاب والضعف..

أتى رجال آخرون.. بكل عنف.. ينظرون لما حدث لأقاربهم.. وأحبابهم..

يتجهون بعنف لذلك الشاب الذي انفكت لعنته..

الذي كان قبيحًا منذ قليل.. حمل عينين خضراوين.. وأصبح وسيمًا فاقدا لنصف فكه السفلي..

افترش رمل الأرض..

ينظر لحبيبته التي احترقت تمامًا..

يدهسون على جمجمته.. تهشمت ببشاعة..

أصبح كالدمية بلا حياة.. يركلون في جسده الميت.. لمحت دمعة حارة بعينيه تسقط بعدما أصبح جسده جثة بلا حياة رسميًا..

لم أتحمل رؤية المزيد.. فسقطت أرضًا وسط الهرج والمرج..

******

بالمشفى لمدة شهرين كاملين بالمعادي.. عبر جراحة دقيقة بالقفص الصدري.. تداوت جراحي.. وفقدت أرضًا بالمزاد حملها رجل يدعى (عبد النبي).. رغم أن كلنا عباد الله..

صاحب شارب كث.. ووجه بغيض..

له أقصوصة طويلة، ربما أقصها يومًا ما..

عادت القرية لطبيعتها..

بعد حفل القتل والاختفاء المستمر..

أعدو قبورًا جماعية رصوا بها شهداء النداهة وذلك الشاب الوسيم..

نصحت أمي بالقدوم إلى منزلي بالقاهرة..

وأصرت على الموت بدارها أمد الدهر..

حتى لو انتشرت بالقرى آلاف الغولات..

هي تحب ذلك الدار..

لذا كي لا تجرح مشاعري..

قررت القدوم للقاهرة ليومين كاملين..

اقتسمناهما أنا وولدي علاء..

وأصبح ذلك روتينًا اعتياديًا بيننا.. وفي الأجازة الرسمية نذهب لها حاملين معنا آلاف الذكريات المدهشة..

في تلك الليلة..

وفي أثناء سيري في طريق العودة من البلدة..

لمحت شابًا يحمل هوية صحفي يقود تحقيقًا حول جرائم الاختفاء التي حدثت منذ عدة شهور..

كان معه كتيب قديم..

مثل المخطوطات القديمة.

يبدو قديمًا جدًا جدًا..

ذلك الشاب أخبرني أنه عثر على دليل واضح لاسباب القتل و الاختفاء..

ولكن سوف يستمع إلى أهل القرية قبل أن يطّلع على ذلك الدليل..

إنه لن يعرف شيئًا مطلقًا.. بل إنه لن يُصدّق حرفًا من أهل القرية..

بل سوف يقول إنها تخاريف وأساطير..

الآن سوف أطّلع على ذلك الكتيب.. عبر ذلك البلكون..

وفنجان القهوة.

******

الجزء الثالث
الخاتمة

أنا خادم ذلك القصر..

عصر ذهبي بدأ على يديّ ذلك الملك.. لذلك وقبل الخوض في مذكراتي الخاصة جدًا، يجب أن أترك لك يا حامل ذلك الكتيب تاريخًا..

نحن في عصر محمد علي باشا..

هو مؤسس مصر الحديثة..

وحاكمها ما بين ١٨٠٥ إلى عام ١٨٤٨، استطاع أن يعتلي عرش مصر بعد أن بايعه أعيان البلاد ليكون واليًا عليها..

بعد أن ثار الشعب على سلفه خورشيد باشا..

ومكّنه ذكاؤه واستغلاله للظروف المحيطة به من أن يستمر في حكم مصر لكل تلك الفترة..

ليكسر بذلك العادة التركية التي كانت لا تترك واليًا على مصر لأكثر من عامين..

خاض محمد علي في بداية فترة حكمه حربًا داخلية ضد المماليك والإنجليز إلى أن خضعت له مصر..

ثم خاض حروبًا بالوكالة عن الدولة العالية في جزيرة العرب ضد الوهابيين...

وضد الثوار اليونانيين على الحكم العثماني في المورة..

كما وسع دولته جنوبًا بضمه للسودان..

وبعد ذلك تحوّل لمهاجمة الدولة العثمانية حيث حارب جيوشها..

وكاد يُسقطها..

تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية، التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها..

خلال فترة حكمه...

استطاع أن ينهض بمصر..

عسكريًا..

وتعليميًا..

وصناعيًا..

وزراعيًا..

وتجاريًا..

مما جعل من مصر دولة ذات ثقل تاريخي في تلك الفترة..

ونهايته..

مأساوية بالنسبة لرجل شديد الذكاء والحنكة..

انسحاب الجنود المصريين من بلاد الشام وفصل الأخيرة عن مصر وعودتها لربوع الدولة العثمانية..

بدعم دولي كبير..

وبعدما تبيّن أن فرنسا ليست مستعدة لخوض حرب في سبيل مصر أو واليها..

أصيب محمد علي باشا بحالة من جنون الارتياب..

وأصبح مشوش التفكير شيئًا فشيئًا..

ويُعاني من صعوبة في التذكّر..

ومن غير المؤكد إن كان هذا نتيجة جهده الذهني خلال حرب الشام..

أم حالة طبيعية نتيجة تقدمه بالسن..

أم كان تأثير نترات الفضة التي نصحه أطباؤه بتعاطيها منذ زمن لعلاج نفسه من مرض الزحار..

ذلك وحده ما كنت أعتقد أنه كان سببًا رئيسيًا في تعجيل وفاته..

ما زاد حالة محمد علي باشا سوءًا كانت المصائب التي حلّت بمصر..

ففي سنة ١٨٤٤ تبيّن لرئيس الديوان المالي شريف باشا، أن ديون الدولة المصرية قد بلغت ٨٠ مليون فرنك..

وأن المتأخرات الضريبية قد بلغت ١٤,٠٨١,٥٠٠ قرش من الضريبة الإجمالية المقدرة بحوالي ٧٥,٢٢٧,٥٠٠ قرش..

وتخوّف الباشا من عرض الموضوع على محمد علي..

لما قد يكون له من وقع شديد عليه، فعرض المسألة على إبراهيم باشا ،الذي اقترح أن تقوم أحب شقيقاته إلى والده بنقل الخبر!

إلا أن ذلك لم يكن له الأثر المرجو..

فقد فاق غضب محمد علي ما توقع الجميع، ولم يهدأ باله بل فاق، ولم يهدأ قليلاً إلا بعد مرور ستة أيام..

بعد عام من هذه الحادثة..

أصيب إبراهيم باشا بالسل، واشتد عليه داء المفاصل..

فزاد ذلك من هموم العزيز وحزنه..

فأرسل ولده إلى إيطاليا للعلاج..

على الرغم من أنه أدرك في قرارة نفسه أن ولده في عداد الأموات..

ذلك المرض عندما يصيب بني البشر ينعزل عن الآخرين..

ويكون في عداد الموتى..

سُمي بمرض الموت البطيء..

أما عبّاس فكان متراخيًا كسولاً..

من عساه يحكم مصر الآن سوى الأولاد؟

وكيف لهؤلاء أن يحفظوها؟

بعد ذلك عاد محمد علي إلى مصر وبقي واليًا عليها حتى اشتدت عليه الشيخوخة، وبحلول عام ١٨٤٨ كان قد أُصيب بالخرف!

وأصبح توليه عرش الدولة أمرًا مستحيلاً، فعزله أبناؤه وتولّى إبراهيم باشا إدارة الدولة.

أما أنا فأصبحت معزولاً تمامًا عن البشر..

بعدما كان تحت يدي الخدم..

آمر.. وأتعلم.. وأطيع.. وأنبهر..

أركام هشة تحمل عظامًا واهنة..

كدت أن أنسى..

ها قد علمت عمن أتحدث الآن يا حامل الكتيب..

أنا خادم قصر الملك محمد علي..

كبير الخدم على وجه التحديد..

سنحت لي الفرصة في تحديد الخادمات اللاتي يتخصصن بتقديم العشاء الخاص للباشا.. خادمات آتيات من أرض اليونان..

لمحت خلالها فتاة تدعى نوران..

اكتشفت بعدها توأمًا لها، نسخة مطابقة بشكل مبهر، نسخة واحدة انقسمت لاثنين.. وجهها ملائكي طفولي.. ثغرها يفور له المحيط..

كانتا ناعمتين بشكل كبير..

رقة تود لو امتلكتها بضع دقائق..

الجميع استمع لذلك النداء عن قدوم الأمير (زهران) كبير سفراء الباشا الجديد..

يحمل من الوسامة والجمال قدرًا مهولاً.. مما جعل نساء القصر يتهافتن عليه بشدة..

بتلك العينين الخضراوين.. والشعيرات الذهبية..

مما جعل العزيز يلاحظ تلك النظرات.. وقد وافق أن ينتقي الأمير زهران زوجته..

تنازعت عليه ملائكة القصر.. الخادمتان (نوران) و (فريدة)..

نوران كانت رقيقة القلب أما الأخرى فكانت أكثر شرًا مما يبدو عليه وجهها الملائكي، رآها زهران أثناء تقديم حفل عشاء..

أعجب بها كثيرًا..

طبع قبلة على يدها في حضور الباشا محمد علي..

وبارك له على الزيجة..

أصبحت قصة حبهما أسطورة يتحاكى بها الناس..

مما أثار غيرة الأخرى فريدة..

راقبتها بما أنني كنت كبير الخدم في تلك الليلة..

تُحضّر لفعلة مشينة..

اختطفت الأمير من غرفته.. وقد رشت على وجهه ماءً مسحورًا..

أقنعته بأنها هي زوجته..

جلسا سويًا على فراش الزوجية المحرم..

أتت نوران الملائكية..

ورأت الفعلة.. سقطت دمعتها سريعًا.. وقد علمت حينها أنه لن يعود لها مطلقًا..

تسمرت قدماها.. ووجها الأبيض يحمل دموعًا لا بأس بها..

جرت في أروقة القصر..

الى أن خرجت عبر الحقول الزراعية الشاسعة.. تُردد داخلها كلمة واحدة: خائن، خائن..

دبرت أختها المكيدة الأخرى عبر كتيب سحر قديم..

أمسكوا المسكينة وصلبوها بقسوة..

ساعدها الأمير زهران بكل حب في تكبيل أطرافها..

وهو لم يستوعب بعد أنه واقع تحت تأثير سحر شرير..

فقد رأت المسكينة نوران فريدة تُحضّر طقوس السحر الأسود.. على الأمير زهران..

لحرمان كلاهما من جماله..

رأت قدماه تتحولان لقدم ماعز..

ووجهخ يحمل بشاعة الكون..

عن طريق حبة الفول..

وبعض التراكيب الجهنمية..

أصبح مساعدًا مطيعًا لها..

لم تفلح توسلاتها داخل بادروم القصر..

فقد أحضرت لها تركيبة أخرى وقذفتها عليها..

حوّلت كيانها لكيان قرين متوحش..

فصلت عنها قرينتها من الجن بطريقة سحرية..

وتعاود الظهور الإنساني..

وتعود لجسدها الآدمي عندما تُعاود البكاء على ما فقدت..

أصبحت كذلك لمدة شهر كامل..

حبيسة..

ملعونة..

ترجت الأميرة نوران الملعونة فريدة بأن تفك اللعنة عن الأمير زهران..

وبشكل مرضي خبيث ترفض.. تعاود ألاعيبها السحرية.. من جديد ومعها الخادم المطيع..

حتى أصابتها لعنة أخرى.. حولتها لهيئة سوداء بشعة.. أطلقت عليها الأميرة نوران الغولة..

تُحاول مجددًا إعادة التركيبة السحرية معطية ظهرها للأميرة المكبلة الأطراف..

تقول الأميرة نوران.. متمنية أن تتملك حبة الفول التي حولت بها الأمير، مترجية أن تتذكر شيئًا ما عن التركيبة.. يا غولة طقطقي الفولة..

مما يثير جنونها..

لقد تناست كل شيء عن التراكيب..

وأصبحت مسخًا إلى الأبد..

فتثور هنا وهناك..

اكتشفت ذلك العبث الشيطاني..

وفي ليلة سوداء..

فتحت الأبواب على نوران.. تنظر لي بعيون دامعة.. أن أفك قيودها، أفتح لها الأبواب كي تفر..

مرت ثلاثة أيام على فرارها..

حينها أصبحنا نسمع كثيرًا عن مقتل الأمراء..

وقد علمت أن الغولة وذلك المسخ هرعا للبحث عنها بكل مكان..

اكتشفت مكانهم بالمصادفة أثناء حفر أنفاق..

يسكنون إحدى المغارات القديمة التي استغنى عنها محمد على باشا..

أثناء حربه الأخيرة.

وقد أُغلقت أبواب ذلك الممر..

عسى أن تنتهي قصتهم إلى الأبد..

لقد أصابتني تلك اللعينة بمرض نادر.. يبقيني عاجزًا هشًا..

تأتي لي لتبث داخل أوصالي رعبًا لا يُقتلع بسهولة..

ذلك هو مرضي..

أصبت بمرض الرعب..

الخوف والعجز..

عجز الأطباء عن إيجاد حلول وعلاج لمرضي المبهم..

إلى أن أُصبت بصمم أثناء رؤيتي مشهد أخير..

العزيز..

في آخر أيامه..

لم يكن يعلم بما كان يحدث داخل أروقة قصره..

******

- بس يا جماعة، دي آخر حاجة مكتوبة في الكتاب.. اللي لاقيته من الصحفي على سبيل الاختصار يعني، باقي الكتاب فضفضة عن عصر محمد علي.. وازاي كان في نهضة في كل شيء.. زراعة، صناعة.. محمد علي كان طفرة.

متسعي الفم..

الجميع بلا استثناء.. قبل أن يعود ولدي علاء متسائلاً:

- بابا، انت ماحكتليش أي حاجة عن التفاصيل دي قبل كده.

زوجتي:

- يعني هو أنا اللي كنت أعرف؟ أبوك مابيعرفش حد حاجة غير لما يجيبه مزاجه.

زوجة ولدي ذكية، قالت بكل هدوء:

- أيوة يا بابا بس الحكايات دي مايصدقاهش العيال الصغيرة.. أنا نفسي كنت محتاجة وقت أصدق خوارق ما وراء الطبيعة اللي حكتها انت وعلاء.. بس مستحيل طبعا أكذبك، انت مستحيل تكذب.

قلت بهدوء:

- بصي يا بنتي.. لكل جيل من الأجيال معتقداته اللي بيقتنع بيها.. مثلاً الجيل القديم يعشق أم كلثوم.. إنما الجيل الجديد يموت في أغاني بحبك يا حمار.. أنا مش هتريق ولا هلوم.. دي متطلبات العصر.. بس لو أقدر أقوّم أحفادي عن وساخات الزمن ده.

قال علاء باهتمام:

- بابا مقتنع دايمًا إن لكل جيل أسلوب مختلف عن الجيل اللي قبله.. وده اللي يخليه يسيبنا نختلط في المجتمع وضامن إننا مش هنتخلى عن تربيتنا أبدًا مهما شوفنا.

قلت مكملاً:

- الوضع دلوقتي أصبح خطير.. الجيل اللي طالع ده أخطر الأجيال اللي ممكن تفسد وبسهولة.

قالت زوجتي:

- أنا بشوف عيال صغيرة بيشتموا راجل كبير قد أبوهم.. تقدري تقوليلي يا دعاء ده غلط مين؟

قالت زوجة ابني:

- من أسلوب المجتمع.. اختلاف الأجيال.

قالت زوجتي باهتمام:

-يبقى مافهمتيش.. المجتمع متغير بطبعه.. لكن التربية واحدة.. الأساس واحد.. الاحترام والأدب والأخلاق عمرها ماهتتغير يا بنتي.

قال علاء:

- معاكي حق يا أمي.

قلت بكل حماس:

- يا ولاد ربوا عيالكم بعصرهم.. وماتجبرهمش إنهم يهتموا بعصركم قد ما يهتموا بأخلاقكم.. لو الطفل شافكم بتعملو حاجة غلط هيعملها زيها.. ويقول بابا كان بيعمل.. ما ترموش العتب على الزمن.. الزمن مش هيتحمل تكاليف فاتورة إهمالكم في تربية أولادكم يا حبايبي.

التف حول عنقي حفيدي الصغير قائلاً بمرح طفولي أعشقه:

- أنا بحبك يا جدو.

- تعالى هنا يا ولد.

أمسكته وقبلته وظلّ في أحضاني طويلاً، حتى طرق الرحيل الأبواب..

قال ولدي قبل أن يغادر:

- بابا، تيتة بقت تفقد الذاكرة.

ربت على كتفه في حزن وألم.. قبلت الصغار.. طرقت زوجة ابني سؤالاً أخيرًا:

- مفيش حكايات تانية مخبيها هنا ولا هنا؟

ضحكت بكل ود وقلت:

- المرة اللي جاية هوريكم مفاجأة كبيرة أحسن بكتير من كل اللي فات.

ثار الجانب الشغوف بها فقالت:

- بجد يا بابا؟ طيب امتى؟ ها امتى؟ طب ممكن تديني الكتاب ده.. علشان خاطري، علشان خاطري.

أمسكها علاء من ذراعها يجرها أمامه:

- مجنونة، معلش.

تمازحنا قليلاً، عادة مصرية بحتة.. حتى أُغلقت الأبواب، نظرت لي زوجتي قائلة:

- بقى يا راجل تطلع عفريت بالشكل ده وماتحكليش على كل اللي حصل ده؟ مش تقولي إنه جوزي غلب السوبر مان!

- يا ستي.. ماتخديش في بالك.

- قولي يا راجل الكلام ده حقيقي ولا بتسرح بينا انت وابنك؟

لم أنطق وأنا أعطيها ابتسامة مطولة.. أعلم شغف النساء عندما يبدأ في الإلحاح.

فلو علمت ما واجهت من قبل لـ...

يكفي ما قلت.. قلت في هدوء وأنا أمسك نظارتي الطبية:

- روحي اعمليلنا شاي وأنا هاحكيلك على حاجة تطير العقل.. وانتي حره بقى.. أنا خايف عليكي.

- لا قولي والنبي دلوقتي يا سعيد.

- يووووه، يا ست عايز كوباية أعدل بيها دماغي، هاهاه.

- كده يا سعيد؟ طيب.

وهرعت مسرعة تُحضر لنا الأكواب الساخنة..

وأمسكت بذلك الريموت..

فيلم السهرة ممتع اليوم.

إسماعيل يس في مستشفى المجانين.. لا أحد يتابع الآن أفلام الأبيض والأسود مثلما كان بالماضي..

لذلك..

أخرج من أسفل الكرسي نصف كتيب...

وضعته جوار الكتيب الناقص ليكتمل كتيب مذكرات كبير خدم الملك (محمد علي) باشا عزيز مصر، أُحدث نفسي وأنا أضع الجانب المفقود كأنما هو أحد أبنائي الصغار:

- هبقى أجيب السلوتيب وهلحمك من جديد، معلش.

وهنا أتت زوجتي.. لهفة.. وضعت ملعقتين من السكر.. وأعطتني كوب الشاي الساخن، وقبل أن تتساءل أجبتها:

- الكتاب أنا قطعت نصه علشان ماكنش ينفع حد يعرف المعلومات اللي فيه.

اتسعت عيناها قائلة:

- ليه كده يا راجل؟ انت بتخبي حاجة عننا؟ ينفع كده؟!

- الولاد لو عرفوا مش هيصدقوا.. لأن اللي فيه بيثبت وجود مخلوقات من اللي كان بيتحكلنا عليها زمان.. أنيل من أمنا الغولة والنداهة.. وأبو رجل مسلوخة.. دي حكاية الكبير بتاعهم.

- سلام قولاً من رب رحيم.. لا بقولك إيه، مش عايزة أسمع كلام من ده تاني.. لو اللي مخبيه في الكلام ده مش عايزة أعرفه يا خويا.. وبعدين انت عايز جيل الكمبيوتر والإنترتت ده يصدق الكلام ده؟

- ها ها.. أنا عمري كدبت عليكي يعني؟

- مابتكدبش يا سيد الناس.. اقعد انت اسرح بينا كده انت وابنك.

ضحكنا سويًا..

قبل أن أقطع الحديث وأقول لها بجدية:

- انتي عارفة إيه اللي موجود تحت قصر محمد علي؟

- إيه بقى؟! عفاريت؟

- تسمعي عن قصة الأشكيف.

- ده بتاع ألف ليلة؟

- هو ده.

- والنبي يا سعيد لو هتقول حاجة تخوف بلاش.. انت عارفني خيالي واسع.

- يا أم العيال أنا من زمان بخاف عليكي من الهوا الطاير.. وحفظتك صم.. لدرجة إني بعرف امتى بتخافي بجد.. وامتى بتمثلي.

- هيء هيء هيء.. حبيبي يا أبو العيال.. للدرجادي بتحبني؟ بوشي اللي كرمش وحجمي اللي بقى زي الدرفيل؟

- ههههههه، حرام عليكي تظلمي الدرفيل.

- كده يا سعيد؟ ماشي.

أمسكت يدها بحنان.. ونظرت لعينيها التي امتلكت صورة فتاة صبية، مهما بلغت تجاعيد وجهها الحنون.. هي كما هي دائمًا.

- والله العظيم بحبك يا أم علاء.

ابتسمت أخيرًا كالأطفال..

أعطيت نظرة أخيرة للكتيب.

ربما في وقت لاحق سوف أسرد لهم رواية (الأشكيف المخيف).. الذي أغشى القرية في رعب طيلة ثلاث سنوات.

******

الزمن: ١٨٣٥

جلس ابني جواري.. يمسك يدي بحنان مثلما أمسكت كفه الصغير عندما خرج للتو من بطن أمه.. يقول لي بحنان:

- أبي ما بك؟ أراك في حالة مزرية.

حاولت وضع يدي الأخرى على يده.. أطمئنه ولكنني لم أُفلح وأنا أبعد وجهي بعيدًا.. كالأطفال متحاشيًا النظر إليه.. أكمل ولدي، الحديث يؤلم مشاعري كثيرًا:

- أين أبي الذي كان يحمل شموخ وكبرياء الكون.. أين رئيس الخدم؟

قلت وأنا أحاول منع دمعة تُحاول الفوز بالقفز من محجريها قائلاً:

- لا شيء يا ولدي.. فقط اتركني.

- لن أتركك قبل أن أعلم ما بك.. أخبرني الطبيب أن مرضك نفسي.. ما بك أخبرني!

قلت وأنا أراقب مدخل باب حجرتي:

- حسن.. عدني أنك لن تخبر أحدًا.

- أعدك.

- أغلق الباب بإحكام وتعال.

أسرع ولدي يلبي النداء.

فقلت بلهفة:

- ذلك القصر يحمل وحشًا مخيفًا.

- أين؟

- أسفل تلك الغرفة.. توجد فتحة صغيرة.. أزل السجاد الأحمر أولاً.. ثم افتح بحذر. بحذر شديد يا ولدي.

أراقبه وهو ينفذ بدقة..

يفتح الغطاء برفق..

فتح الغطاء قرابة النصف متر..

أصيب بحالة من الجمود..

ثم الهلع.. أغلقه بقوة ناظرًا إليّ في حالة عدم تصديق، قائلاً بنبرة خوف:

- ما هذا؟ كيف ومتى أتـ..

انفجرت الفتحة..

وخرجت يد شيطان كبيرة..

يد تحمل شعيرات سوداء..

وزمجرة تحمل مزيجًا بين أصوات الأسد وسخرية الضبع..

تمت بحمد الله.

الكاتب فى سطور

محمود محمد امام , من مواليد شبرا .. خريج كلية تجارة (جامعة عين شمس) ..كان يعمل في مجال الفوركس سبق له النشر فى معظم الجرائد المصرية بداية من عام ٢٠٠٧ ..حيث كانت اولا مقالاته مقال بعنان(مشكلة جيل) .. تخصص في ادب الفانتازيا والرعب النفسى .. صدرت له روايته الاولى (المنكود) التى حققت نجاحا فى اول ايام عرضها بمعرض القاهرة الدولى للكتاب .

له تحت الطبع

- عشب اخضر – المنكود ٢
- احجية بغداد

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/mahmoud.emam.٣٥?ref=tn_tnmn

mamoemam@yahoo.com



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧